الإغتراب في الشعرالإسلامي المعاصر
تأليف الدكتورفريد أمعضشو

فهرس المحتويات

مدخل: في تعريف الاغتراب

الفصل الأول: الاغتراب في شعر حسن الأمراني

الفصل الثاني: الاغتراب في شعر محمد علي الرباوي

الفصل الثالث: الاغتراب في شعر محمد بنعمارة

قائمة المصادر والمراجع

الإغتراب في الشعرالإسلامي المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتورفريد أمعضشو

تندرج هذه الدراسة ضمن خانة النقد الإسلامي التطبيقي، ذلك بأنها تروم كشف اللثام عن إحدى الموضوعات البارزة في المتن الشعري الإسلامي المعاصر، ويتعلق الأمر بثيمة الاغتراب وما يرتبط بها من معانٍ. فهذه الموضوعة تحضر، بكثافة، في المتن المذكور متخذةً لها عدة صُور، وتقبع وراءَها جملةٌ من العوامل أشار إليها شعراؤنا الإسلاميون في كثيرٍ من قصيدهم. وقد قسمت دراستي هذه إلى ثلاثة فصول سلطت الضياء فيها على ثلاث تجارب شعرية تناولت، بإفاضة، الموضوعة المومإ إليها آنفاً، وصدّرتها جميعَها بمدخل نظري عام حدّدت فيه مفهوم الاغتراب في اللغة وفي الاصطلاح وفي عدد من حقول المعرفة، وأثرتُ خلاله مجموعة من الأمور والقضايا المتحَّضة له. فأما الفصل الأول فقد تطرق إلى تبيان ملامح الغربة والاغتراب، وإبراز مسبِّباتهما وآثارهما وغير ذلك، في شعر الدكتور حسن الأمراني الذي يعد، بحق، أحد عمالقة الشعر الإسلامي المعاصر في الوطن العربي كله. وأما الفصل الثاني فقد عالج تلك الثيمة في شعر الدكتور محمد علي الرباوي الذي يشكل، هو الآخر، أحدَ أعمدة الأدب الإسلامي المعاصر في المغرب، بل في العالم العربي برمته. على حين انصرف الفصل الأخير إلى تجلية مظاهر الاغتراب، والوقوف على عوامله وانعكاساته كما تجسَّدت في أشعار المرحوم الدكتور محمد بنعمارة الذي شكل، إلى جانب الشاعرين السابقين، الثالوث الذي حمل مشعلَ الشعر الإسلامي في المغرب مدةً غير يسيرة من الزمن. وقد ارتأيتُ ختم كل فصل بخلاصة جامعة لأبرز استنتاجاته، ووضعت في آخر الدراسة قائمة بالمصادر والمراجع المختلفة التي اعتمدتها في إنجازها، علاوة على فهرس لمحتوياتها، جرياً على ما هو معمول به في الأبحاث العلمية الأكاديمية.

مدخل: في تعريف الاغتراب.

من الأعراف المنهاجية الراسخة في مضمار البحث العلمي أنه يلزم، لتحديد أي مصطلح ، المرورُ بمحطتين اثن ين متكاملتين، أولاهما تعنى بالجانب اللغوي/ المعجمي، والثانية تهتم بالجانب المفاهيمي/ الاصطلاحي. وبمُقتضى هذا العُرْف الأكاديمي ، سنتعامل مع مصطلح "الاغتراب" الذي "يعتبر الآن من أكثر المصطلحات تداولاً في الكتابات التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث، وخاصة المجتمع الصناعي المتقدم، وبالذات في الدول الرأسمالية".[1]

تجمع المعاجمُ العربية، قديمُها وحديثها، على أن الاغتراب (أو الغربة) معناه البُعد والنزوح عن الوطن. ولتوضيح ذلك أكثر، ارتأينا أن نورد ما قاله ابن منظور المصري (ت711هـ) في هذا الإطار، على اعتبار أن تعريفه مفصّل وشامل كثير ا مما جاء في المعاجم الأخرى التي تقدّمته.

قال صاحب "اللسان": "الغرْب: الذهاب والتنحّي عن الناس. وقد غَرَب عنا يَغرُب غَرْباً، وغَرَّب، وأغْرَب... والغرْبَة والغرْب: النّوى والبُعد، وقد تغرَّب... ويقال: غَرَّب في الأرض، وأغْرَب إذا أمْعَن فيها... ونوىً غَرْبَة: بعيدة. وغَرْبَة النّوى: بُعدُها، قال الشاعر: (من البسيط التام)

وَشَطَّ وَلْيُ النوى، إنّ النّوى قُذُفٌ تيّاحةٌ غَرْبَةُ الـدّارِ أحْيانا

والنّوى: المكانُ الذي تنوي أنْ تأتيه في سفَرك. ودارُهم غَرْبَةٌ: نائية. وأغْرَبَ القومُ: انتوَوا. وشأوٌ مُغرِّبٌ ومُغَرَّبٌ: بعيدٌ، قال الكُمَيْت: (من الطويل)

وعهْدَكَ مِنْ أولَى الشَّبيبةِ تطلُبُ على ذِبْرٍ، هيْهاتَ شأوٌ مُغرِّبُ

وقالوا: هل أطْرَفْتنا مِن مُغرِّبَةِ خبَرٍ؟ أيْ هلْ مِنْ خَبَرٍ جاء من بُعدٍ؟... والتَّغريبُ: النفْيُ عَنِ البَلَد. وغَرَبَ أيْ بَعُد، ويقال: أغْرُب عني أيْ تباعَدْ... والتغرُّبُ: البُعْد... والغرْبَة والغرْب: النُّزوح عن الوطن والاغْتراب، قال المتلمّس: (من الطويل)

ألا أبْلِغا أفْناءَ سَعْدِ بنِ مالِكٍ رسالةَ مَنْ قد صارَ في الغرْب، جانِبُهْ

والاغترابُ والتغرُّبُ كذلك، تقول منه: تغرَّب، واغْترَب، وقد غَرَّبه الدَّهرُ. ورَجُلٌ غُرُبٌ، وغَريبٌ: بَعيدٌ عن وَطَنه، الجَمْعُ غُرباءُ، والأنثى غريبة... واغترَبَ الرَّجُلُ: نكَحَ في الغرائِب، وتزوَّج إلى غيْر أقاربه. وفي الحَديث: "اغْتربُوا لا تضْوُوا"، أيْ لا يتزوَّجُ الرَّجلُ القرابَةَ القريبَة، فيَجيءَ ولدُه ضاوِيًّا والاغترابُ: افْتِعالٌ منَ الغرْبَة... وأغْرَبَ الرَّجُل: صارَ غَريباً، حكاه أبو نصر... ورَجُلٌ غَريبٌ: ليسَ منَ القوْم، ورَجُلٌ غَريبٌ وغُرُبٌ أيضاً، وتثنيته غُرْبان، قال طَهْمانُ بنُ عَمْرٍو الكِلابيُّ: (من الطويل)

وإنّيَ والعَنْسِيَّ، في أرْض مَذْحِجٍ، غريبان، شتّى الدار، مُختلفانِ

---

[1] - أحمد أبو زيد: الاغتراب، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع.1، مج.10، أبريل- مايو- يونيو 1979، ص4.

[2] - الصاحب ابن عباد (ت 385هـ): المحيط في اللغة، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، عالم الكتب ، بيروت، ط.1، 1994، 72/5- الجوهري (ت393هـ): تاج اللغة وصِحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ، بيروت، د.ت، 191/1+192+193- ابن فارس (ت395هـ): معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، الدار الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان، ط 1990، 421/4- ابن سيدَه (ت 458 هـ): المحكم، تح: إبراهيم الأبياري، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط .1، 1971، 298/5+299- ابن أبي بكر الرازي (ت 666هـ): مختار الصحاح، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط.1، 1967، ص: 470- المقّري الفيّومي (ت 770ه -): المصباح المنير، تح: مصطفى السقا، 96/2- الفيروز آباذي (ت 817هـ): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة ، بيروت،ط.2، 1987، ص ص 153+154- الزبيدي (ت 1205هـ): تاج العَرُوس، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، ط.1، 1306هـ، 404/1- 411- مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، دار الفكر، 647/2- فؤاد افرام البستاني: منجد الطلاب، دار المشرق، بيروت، ط.39، 1992، ص: 516- أحمد قبّش: المعجم الفيصل، ط.1، 1985، ص59... إلخ.

وما كان غَضُّ الطّرْف منا سَجِيّةً، ولكنّنا في مَذْحِجٍ غُرْبـانِ

والغُرَباء: الأباعدُ... والمُغرِبُ: المُبعدُ في البلاد.[3]

نستشفُ من خلال قراءة هذا التعريف -وغيره- أموراً عدة، أهمُّها:

- إن لكلمة "غرب" معانيَ متعددة ومتنوعةً، بعضها حسّي، والآخر معنوي. وقد ذكر لها ابن منظور،[4] والزبيدي[5] -مثلاً- عدداً وافراً من المعاني، من أبرزها البُعد والنّوى. قال الشاعر[6]: (من الطويل)

إليكَ أتتْ تفْلِي الفَلاةَ بَدَوِيّةٌ ولمْ يُنْضِها طُولُ المَسيرِ وغُرْبةُ

وهذا أمر لا يحتاج إلي تدليل إضافي ؛ لأن "الغرب" من الكلمات كثيرةِ الاستعمال و التداول، وتتسم —فضلاً عن ذلك- برحابة صدْرها ، وقدرتها على استيعاب معانٍ كثيرة منذ القديم.

- لا يميّز علماءُ اللغة بين مفردات "الغربة" و"الاغتراب" و"التغرُّب"، بل هي -عندهم- بمعنىً واحدٍ ؛ وهو النزوح عن الوطن. ولكنّا نلاحظ أن بعض الباحثين يَ صطنعون التفرقة بين "الغربة" و"الاغتراب"، وبين "الغريب" و"المُغترِب".[7] ومهما كان الأمر، فإننا سنستعمل، في هذه الدراسة، "الغربة" و"الاغتراب" بوصفهما مترادفيْن. وقد فعلتِ الشيءَ نفسَه الباحثة المغربية فاطمة طحطح في عملٍ أكاديميٍّ لها، حيث قالت: "الغربة والاغتراب كلها في اللغة بمعنى واحد وهو الذهاب والتنحي عن الناس".[8]

- يقول علماءُ الصرف إن أيَّ زيادةٍ في المبنى يترتب عنها تغيُّر في المعنى. فـ"الاغتراب" كلمة م شتقة من "اغترب"، وهذا الفعل مزيد بحرفين (الألف والتاء)، ويتمثل معنى هذه الزيادة بمُطاوعة الثلاثي (غرَّبـ ـته فاغْتَرَب). أما "التغرُّب" فمصدرٌ قياسي للفعل الخماسي "تغرَّب"، وهو يفيد أيضاً المطاوعة (غرَّبْته فت.غرَّب).[9] على حين أن "الغرْبة" مصدر سماعي للفعل الثلاثي "غَرُب"، وتجْدُر الإشارة إلي أن للجذر "غ رب" في العربية، ثلاث تشكيلات لغوية، هي:

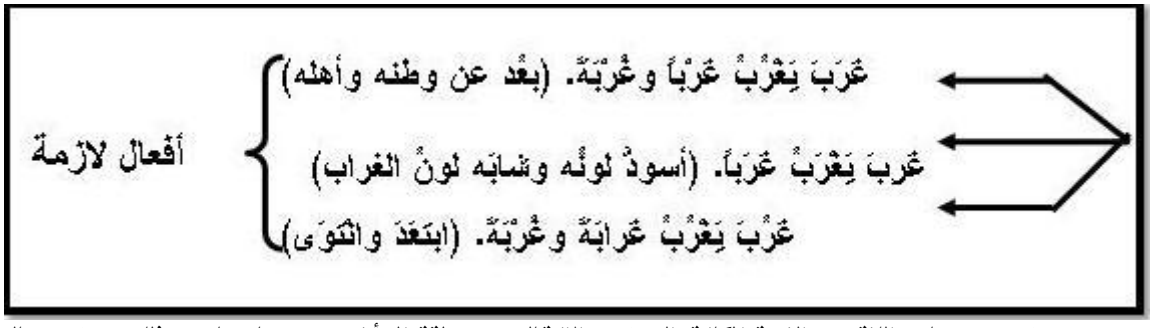

- تتحدث معاجم اللغة عن "الغربة المكانية" التي تعني الانتقال من منطقة إلي أخرى، مع ما يصاحب ذلك من شعور بالضياع والبعد والوحشة. والحق أن ثمة أنواعاً أخرى من الغربة (أو الاغتراب)، كالغربة الزمانية، والغربة الميتافيزيقية، والغربة الروحية، والغربة

---

[3] - ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة "غ ر ب"، 1/638-639-640-641، بتصرف.

[4] - المصدر نفسه، 1/638-643.

[5] - الزبيدي: التاج، 1/407، مادة "غ ر ب".

[6] - المصدر نفسه.

[7] - أمثل: (محمد السرغيني: تقديم كتاب "الغربة والحنين في الشعر الأندلسي" لفاطمة طحطح، مطبعة النجاح الجديدة ، البيضاء، ط.1، 1993، ص7- عبد الرزاق الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1982، ص ص16+243- صلاح نيازي: الاغتراب والبطل القومي، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت، ط.1، 1991، ص ص10+11).

[8] - فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص33.

[9] - الشيخ أحمد الحملاوي (ت1351هـ): شذا العَرْف في فن الصَّرْف، ط.16، 1965، ص45.

النفسية. ولكننا – في الغالب - حينما نطلق لفظة "الغربة" (أو الاغتراب) فإن أذهاننا تنصرف مباشرة إلي الانتقال المكاني سواء داخل الوطن نفسه أو من بلد إلي آخر قريب أو قصيّ.

• انطلاقاً من قراءتنا تعريفَ ابن منظور رَحِمَه، يمكننا الوقوف عند نوعين من الاغتراب (أو الغربة)، إحداهما غربة مادية، وتتجلى في النزوح عن الوطن والابتعاد عن الأهل والعشيرة، وثانيهما غربة معنوية، وتتمظهر في التمرد على تقاليد المجتمع والخروج على أعرافه وقيَمه ؛ وهذه الغربة هي التي ي ومئ إليها الحديث الشريف: "إنّ الإسلامَ بدأ غَريباً، وسيَعُودُ غريباً كما بَدأ، فطُوبَى للغُرَباءِ".[10]

• تستعمل تارةً الأفعال "غرَب" و"غرُب" و"أغْرَب" بمعنى واحد، وهو البعد. يقول ابن سيده الأندلسي: "وقد غَرَبَ عنا يَغْرُبُ غَرْباً، وغَرُبَ، وأغْرَبَ".[11] ولكنْ عندما نتمعّن في معانيها جيّداً نلفي بينها اتفاقا وافتراقا أيضاً. وسنقف عند هذا الأمر لاحقاً.

• قد يغترب الإنسان بمحض إرادته، ويقصد إلي ذلك قصْداً. وقد تؤدي مجموعة من العوامل إلي إيجاد هذه الغربة، دون أن يكون للإنسان أي سلطة في دفعها. وقد سمى عبد الرزاق الخُشروم الغربة الأولي بـ"غربة الذات"، على حين سمّى الثانية بـ"غربة القهْر".[12] ويقول الرجل نفسُه: "ولهذا فإننا نسمي كل غربة حصلت قهراً غربة، وكل غربة حصلت طوْعاً اغترابا".[13] وهذا التقسيم لم يكن عشوائياً ولا تلقائياً، وإنما جاء بعد قراءة متأنية لكثير من المادة الشعرية التي كوّنت شعر الغربة والاغتراب، كما أكد الناقد عينه.

• يكثر استعمال كلمات "الاغتراب" و"الغربة" و"الغريب"... في أشعار العرب القديمة وكذا الحديثة. والشواهد على ذلك من الكثرة بمكان.[14] وربَّما يُعزى ذلك إلي طبيعة حياة العربي في القديم، والتي كانت تقوم على الترحُّل والتنقل فراراً من الأوضاع السياسية والاجتماعية المتردّية، وبحثاً عن مساقط الغيث ومكامن الكلإ في جزيرة العرب. لذلك كان لزاماً على شعراء العربية أن يعبّروا عن واقع الاغتراب، مع ما يرافق ذلك من حنين فيّاض إلي الوطن والأهل. ثم إن العربي في وقتنا هذا – ونتيجة لظروف اجتماعية، وسياسية، وثقافية، واقتصادية،... - يعيش حالاتٍ من التوتر والإحباط في ظل واقع "العوْلمة" الذي يتسم بكثرة المتناقضات، وسيادة منطق الغاب... وعليه، فمن الطبيعي أن نلفي في أشعار العرب – قديمِها وحديثِها- مصطلحات محورية متكررة، من مثل الاغتراب، والغربة، والغريب، والتغريب... إلخ.

وفي اللاتينية (Latin)، تتعدد استعمالات كلمة "اغتراب" (Alienatio) لتشمل ميادين جمّة. وقد أحصى ريتشارد شاخت في كتابة "الاغتراب" – تعريب: كامل يوسف حسين- عدداً من معاني الاغتراب، وشرَحَها.[15]

وحتى لا نطيل، سننتقل مباشرة إلي الحديث عن معنى الاغتراب في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، على أساس أنهما فرعان داخل اللاتينية الأمّ، وتربط بينهما قواسمُ مشتركة عديدة.

ففي الفرنسية، نجد أن "الاغتراب" (Aliénation) يدل على معان كثيرة ومختلفة، أظْهَرها:[16]

---

[10] - هذا الحديث خرجه مسلم وأحمد وابن ماجه.

[11] - ابن سيده: المحكم، 298/5.

[12] - الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، ص14.

[13] - المرجع نفسه ، ص:16.

[14] - يمكن قراءة كثير من هذه الشواهد في مجلة "المورد" العراقية، ع.1، مج.16، 1987. (من ص139 إلى ص171).

[15] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، عالم الفكر، مج.15، ع.2، يوليوز-غشت- شتنبر 1984، ص79.

[16] - Le PETIT LAROUSSE , Ed : Paris, 1996, P :53 -.

- (تحويل ملكية شيء إلي آخر) -1- Transmission à autrui d'un bien ou d'un droit

- (فقدان أو ضياع حق طبيعي) -2- Abandon ou perte d'un droit naturel

- (اختلال ذهني) -3- Trouble mental

- (ابتعاد أو انتزاح) -4- Eloignement

وإذا انتقلنا إلي معنى "الاغتراب" في اللسان الإنجليزي، وجدنا تشابُهاً على أكثر من مستوىً بينه وبين نظيره في الفرنسية. فهو يستعمَل عند الإنجليزيين بمعان كثيرة، منها: الخلل العقلي (Mental illness)، ويدل أيضاً لفظ "Alien" على الغريب الذي ليس من مواطِني بلد مّا، وعلى الشخص القادم من عالم آخر . . .[17] ويوظَّف كذلك مصطلحُ (Alienation) في الإنجليزية للتعبير عن نقل ملكية شيء إلي شخص آخر، مثلما رأينا في الفرنسية تماماً.[18]

تلكم، إذاً، لمحة سريعة إلي دلالة "الاغتراب" عند مُعجميين عرب وغير عرب. وفيما يأتي سنتطرق إلي الحديث عن الاغتراب في الإسلام، قبل الانتقال إلي الحديث عنه في الاصطلاح الفلسفي وغيره.

عندما بزغ هلال الإسلام حاملاً مشعلَ النور والهداية والخير، لم يستجبْ له بادئَ الأمر إلا نَفر قليل من الناس، مُعظمُهم من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. على حين كانت الكثرة الكاثرة من العرب تهيم في عبادة الأصنام والأوثان التي لا تسمن ولا تغني من جوع. وكانت تنعت القلة التي لبّتْ دعوة محمد بن عبد الله (صلعم) بـ"الغرباء". يقول الحديث: "بَدأ الإسلامُ غريباً، وسيَعودُ غريباً كما بَدأ، فطُوبَى للغُرَباءِ". فالغرباء، في هذا الحديث، فئة قليلة من أهل الصلاح والتقى آثرَتْ سبيلَ الله على سبيل الشيطان في مستهلّ الدعوة المحمّدية، ونأتْ بنفسها عن الشُّبُهات والشَّهَوات حين افتتنَ المسلمون بها. وفي آخر الزمان، سيعود المتمسّكون بالإسلام كالقابضين على الجمْر، يُنظر إليهم نظرة ازدراء وتنقيص وتهميش، ويصنَّفون في خانة الغرباء ؛ لمخالفتهم طريق السَّواد الأعظم من أبناء مجتمعاتهم ، ولقيامهم بإحياء سنة المصطفى (صلعم) عندما يرغب عنها الناس. وفي الحديث أن النبي (صلعم) سُئل عن الغرباء، فقال: "الذين يُحيُون ما أمَاتَ الناسُ مِن سُنَّتي". وهؤلاء الغرباء عند الله أعلى منزلة، وأرقى درجة. يقول الحديث: "خيارُ أمَّتي أوَّلُها وآخِرُها، وبيْنَ ذلكَ ثبَجٌ أعْوَجُ ليْس منكَ ولستَ منهُم".

يج عل دينُنا الحنيف عبادَ الله ثلاثَ درجات متفاوتة، أعلاها درجةُ العلماء، تليها درجة المؤمنين، على حين تعَدّ درجة المسلمين أدناها كلّها. قال تعالي: (قالتِ الأعرابُ آمنّا قلْ لمْ تومِنوا ولكِنْ قولُوا أسلَمْنا . . .)[19] وقال أيضاً : (شهِدَ اللهُ أنّه لا إلهَ إلاّ هوَ والمَلائِكةُ وأولو العِلْم. . .)[20]. فإذا كان الإسلام إقراراً باللسان وعَمَلاً بالجَوارح، فإن الإيمان – فضلاً عن ذلك - تصديقٌ بالحسّ الباطن. أما العلم فهو يفوق ذلك كلّه بكونه إعمالاً للفكر والنظَر. هذه الدرجات الثلاثُ تقابلها ثلاثُ درجاتٍ من الاغتراب، هي:

1- اغتراب المسلم بين الناس.

2- اغتراب المؤمن بين المسلمين.

---

[17] - OXFORD UNIVERSITY: OXFORD Advanced learners Dictionay, O.U. Press, Fifth edition (1995), P :28.

[18] - منير البعلبكي: المورد (قاموس إنجليزي - عربي)، دار العلم للملايين، ط.31، 1997، ص37.

[19] - سورة الحجرات، من الآية 14. (رواية الإمام ورش).

[20] - سورة آل عمران، من الآية 18.

3- اغتراب العالِم بين المؤمنين".[21]

ولقلة المسلمين وتميُّزهم من عموم الناس بالخُنوع والإذعان للأوامر والنواهي الربّانية سُمُّوا "غ ـرباء"، ولقلة المؤمنين بين المسلمين وانفرادهم بالتصديق والاعتقاد القلبي الصحيح سُمّوا "غ ـرباء"، ولقلة العلماء بين المؤمنين وتفرُّدهم بإعمال الفكر والنظر في ملكوت الله قبل الحُكم والتقويم سُمُّوا "غرباء". وغربة العلماء هي أشد أنواع الاغتراب وحشة، وأجلاها مقاماً.

ولذلك، يعرِّف عبد الله بن محمد الهروي الأنصاري الاغتراب بأنه "أمرٌ يُشار به إلي الانفراد على الأكْفاء"[22]؛ بمعنى أن كل من انفرد بوصف جليل دون أبناء جنسه فإنه غريب بينهم، مغترب عنهم. و"الانفراد" المذكور في كلام الهروي يمكن أن تقترن به ثلاثة أشكال من الاغتراب أو الغربة:

-1- **غربة الأجسام**: وتعني الاغتراب عن الوطن والأهل طوعاً أو كرهاً. وهي مشتركة بين الناس جميعاً، قال الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عمر: "كُنْ في الدُنيا كأنكَ غَريبٌ أو عابرُ سَبيل".[23]

-2- **غربة الأفعال**: وهي غربة أهل الصلاح والتقوى بين أهل الفسق والفُجور، وغربة الصَدّيقين بين المنافقين، وغربة العلماء بين الجُـهال. . .

-3- **غربة الهِمّة**: وهي غربة باطنة يخ ـصّ بها الصوفية وأصحابُ المعرفة الذوقية الإلهامية، ويسميها الهروي "غربة الغربة"، ويجعلها في المرتبة العليا.

إن الاغتراب في الإسلام إيجابي، ذلك بأنه يَرُوم الابتعاد عن الرذائل، وترْك حياة الفُسـ ـاق، ويقود إلي الزُهد في مُتع الدنيا. ولا يجب أن نفهم من ذلك أن الإسلام يَأدِبُ إلي اعتزال الناس، أو العيش بينهم كأموات. كلاّ ! إن الإسلام يُقصي من دائرته مَنْ لا يهتم بأمور المسلمين ومشاكلهم الداخلية والخارجية، ويَعيب على المتصوّفين تصوُّفا خاطئاً. ويكون الاغتراب مقبولا في الإسلام ومستحْسَناً، إذا فهمْناه الفهمَ السليم. أما في الغرب، فنجد أن الاغتراب يمثل ظاهرة مَرَضية تكشف عن واقعٍ يحْكُمُه منطقُ المادة في غيابِ مُطْلق للقيَم الروحية، وعليه، فقد اختلَّ التوازن، وعمَّ الاضطراب، وفشا الانحرافُ بشتى ألوانه.

على العموم، فـ"الاغتراب بالمعنى الإسلامي اغترابٌ عن الحياة الاجتماعية الزائفة الجارفة، واغترابٌ عن النظام الاجتماعي غير العادل. فالغرباءُ قاوَموا الحياة ومُقرَيا ـتها بطريقة إيجابية ... فقهروا السلطتين جميعاً، سلطة الحكام وسلطة النفس بترْويضها على الطاعات والمُجاهدات، واعتزالهم عن الناس ؛ فحلَّ النظام الروحي الداخلي الذي يُشيع في النفس الشعورَ بالأمن والأمان محلَّ النظام السياسي الخارجي الذي أدْخل الرعب والخوف في قلوب المسلمين، بعد أن تفشَّت بينهم فتنة الشهوات وفتنة الشبهات".[24]

لقد تناول الدرس الفلسفي قضية الاغتراب منذ القدم. ففلاسفة اليونان القدامى يشيرون بالاغتراب إلي حرمان الإنسان من حقه الطبيعي أو القانوني. أما أفلاطون (Platon) – الذي اغترب عن أخلاقيات عصره ومجتمعه، ودعا إلي إقامة جمهورية فاضلة يحكمُها الفلاسفة حتى يتحقق العدل- فكان يقصد بالاغتراب ابتعادَ الإنسان عن عالم المُثل، وعيشه في عالم أرْضي طارئ بدون إرادته.

---

[21] - فتح الله خليف: الاغتراب في الإسلام، عالم الفكر، مج.10، ع.1، 1979، ص92.

[22] - نفســه.

[23] - رواه البخاري عن مجاهد عن ابن عمر. (البخاري: صحيحه، عالم الكتب (بيروت)، كتاب الرقاق، حديث رقم 5، 159/8).

[24] - فتح الله خليف: الاغتراب في الإسلام، ص88، بتصرف.

ومع انطلاق عصر النهضة في أوروبا، صرنا نلمح الاغتراب بوضوح، كما عند رينيه ديكارت (R. Descartes) الذي دعا إلي العيش وفق رؤية جديدة تعتمد العلم من خلال شعاره المعروف بـ"الكوجيطو" (Cogito). فالاغتراب، في نظره، إنما هو اغتراب الذات عن نفسها بالأساس. كما أن الاغتراب في الفلسفة الديكارتية يظهر في عدة مجالات، منها[25]:

أ- **الكوجيطو الديكارتي**، حيث يتبين اغتراب الأنا عن ذاته ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم " الاغتراب الميتافيزيقي" (Aliénation métaphysique).

ب- **الاغتراب الأنطولوجي**، حيث تردُ الحياة الانفعالية إلي آلية الأرواح الحيوانية.

ج- **الاغتراب الوجودي**، حيث تعيش الذات تجربة الانفعال في نطاق "الأنا أفكر".

ثم إن الذي يطّلع على سيرة ديكارت يكشف — م ن كثبٍ - أنه كان يفضّل حياة الاعتزال والاغتراب إلي درجة أن بعض الباحثين يصفون حياته بكونها "حياة فيلسوف مغترب". وينتفي العجب إذا علمنا أن ديكارت عاش أكثر حياته خارج بلده فرنسا، وفي عزلة بالغ فيها إلي حدّ إخفاء مقرّ إقامته عن مَعارفه. وقد طبع هذا كلّه فلسفة ديكارت العقلانية . . . وبعد ذلك سوف نرى الاغتراب ، بقوة، في بريطانيا مع طوماس هوبز (Hobbes T.) الذي كان يرى أن استمرارية الاغتراب بين الفرد والمجتمع رهينٌ بانغلاق الفرد على نفسه، على حين ينتفي ذلك بمجرد انضمام الفرد إلي المجتمع وتسليمه لنواميسه ومبادئه.

لقد تعمّق مفهوم الاغتراب في العصر الحديث، بسبب تعقد العلاقات الاجتماعية، ونموّ المجتمعات البشرية، وظهور الحركة الإمبريالية باعتبارها تتويجاً لتطور الرأسمالية الغربية التي تقف عقَبَةً كأداءَ تحُولُ دون تحقيق التطلعات البشرية، وتكْبَح حرية التفكير والتعبير. وموازاةً مع هذا، تناولت الفلسفة الحديثة أطروحة الاغتراب بعُمق وتفصيل، ولمَعَت فيها أسماء رائدة كان لأفكارها بالغ الأثر في هذا المجال. ونخص بالذكر فريدريك هيجل (F. Hegel)، وكارل ماركس (K. Marx).

من المعروف أن مصطلح "الاغتراب" لم يصبح مصطلحا فلسفياً في الغرب إلا مع فش ـته (1762-1814م)، الذي استخدم الكلمة الألمانية (Entaeussering) بمعنى تخارُج الذات عن الموضوع.

ويَعتبر بعضُ الباحثين هيجل "أبا الاغتراب"، وذلك بالنظر إلي ريادته في هذا الم ضمار ، وإسهامه الوا ضح في دراسة الاغتراب، ومحاولة معالجته بالطرق التي تتلاءم وطبيعةَ فلسفته. لقد رأى هيجل الاغترابَ في صميم بنية الحياة الكلية، وعالجه بكيفية مجرَّدة تنأى عن الواقع الحسي، فتبيَّن له أن الاغتراب عن البنية الاجتماعية يترتب عنه اغترابٌ عن الذات، وهذان الاغترابان يُفْضِ ـيَان إلي الاغتراب عن العقل، معنى هذا أن ثمة "اغتراباً كلياً". والسؤال المطروح، هاهنا، هو: كيف يمكن تجاوُز الاغتراب؟ يتم ذلك، لدى هيجل، بتنازل الفرد عن ذاته حتى يتم الالتحام بينه وبين البنية الاجتماعية، وهذا الالتحام يؤدي إلي عودة النشاط الطبيعي للعقل.

والاغتراب عند هيجل كان —أيضاً- اغترابا دينياً طبْقاً للتصوُرات المسيحية عن الخَطيئة والسقوط والطرْد والحِرْمان، وهذا المعنى سيتعمّق أكثر لدى الهيجليين الشبان، من أمثال باور (1792-1860م)، وفيورباخ (1804-1872م)، وشتراوس (1808-1874م).

يرى فيورباخ (L. Feuerbach) أن الكشف عن الاغتراب لا يتم إلا من خلال فلسفة الدين. فالاغتراب —أساساً- هو الاغتراب الديني، والاغتراب الديني هو أساس كل اغتراب فلسفي أو اجتماعي أو نفسي أو بدني. والواقع أن في فكْر فيورباخ وآرائه تهجماً بيّناً على الدين والثوابت المسيحية المقدّسة. لذا فقد اتهم بالإلحاد، وعدّه اللاهوتيون مدمّراً للدّين إلي الأبد.

---

[25] - حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، عالم الفكر، ع.1، مج.10، 1979، ص70.

وإذا كان هيجل قد تناول الاغتراب بعيداً عن الواقع، فإن ماركس ربطه بالواقع الاقتصادي، و أسبَغ عليه طابعاً امبريقياً وسوسيولوجياً. فالاغتراب، في نظر ماركس، متجلٍّ في حالات اغتراب العامل عن نتاج عمله، حتى ليغدُوَ هذا الإنتاج غريباً ومستقلاً عن مُنتِجه، وذلك راجعٌ إلي طبيعة آلية الاستغلال في المجتمع الرأسمالي الذي لا يهمُّه سوى تحصيلِ الأرباح، وبأيِّ وسيلة كانت. ويرى ماركس أن اللجوء إلي الثورة ومحاربة القائمين على النظام السائد المستغِلِ هو السبيل الأقْوَمُ إلي تجاوُز حالات الاغتراب المعيشة.

وعقب ذلك، اتسعت حدود الاغتراب في كتابات الكثير من رجالات الفلسفة، ولاسيما أولئك الذين ضاقت بهم السُّبُل، ورأوا في المجتمع الرأسمالي خاتمة المجتمعات البشرية، وأنه لا مَهْرَبَ من الإذعان لعَصَاه السحري. ففي ألمانيا -مثلاً- برز شوبنهور الذي أكَّد أن الإنسان مغتربٌ بالضرورة في كتابه "العالم كإرادة وامتثال"، وأيضاً نيتشه، الممهِّد لميلاد النازية، الذي ذهب إلي أن الاغتراب يظل قائماً، وأن الإنسان السوبرمان (Superman) هو وَحْدَه الذي يستحقُّ العيش.

ومن الواضح أن الاغتراب شكَّل في الفلسفة الوجودية (Existentialisme) أرضاً مَريعةً ترْعَى فيها أقلامُ الوُجوديّين، الذين يركّزون على الوُجْدان الذاتي، ويحْرصون أشدَّ الحِرْص على حرية الإنسان في مجتمع متمدّن لم يعُدْ يَعْنيه إلا الربْح السَّريع. ولقد بدأت هذه الفلسفة في النمو مع الدانماركي كيركجَارد (Kierkeggard) الذي رأى أن الفرد مغترب عن ذاته وعمّا حوله، وأن اليأس صفة داخل نسيج وُجوده. وقد اتضح له أن تجاوز الاغتراب يتم عن طريق الدين. ثم تطورت هذه الفلسفة، واعتنقها فلاسفة عديدون، فانقسمت إلي اتجاهين اثنين، أحدهما متديِّن، والآخر مُلحِد. ولكلٍّ منهما نظرته الخاصةُ إلي الاغتراب. ومهما كان الأمر، فالوجودية تيار لاعقلاني يرى الاغتراب في "البُعد عن الوجود العميق، بحيث لا يكون الإنسان ذاته، وإنما مجرد صفر على الشِّمال في الوجود الجَمْعي للجماهير، أو مجرد ترْس في نظام صناعي "[26]. ويضيف الوجوديون أن الإنسان مُدانٌ بالاغتراب، وأنه مهما حاول التملُّص من سَطْوته، فإنه سيموت مُغترباً، لأن الحياة نفسها اغتراب[27]. ويظهر الاغتراب – بصورة أجلى - في كتابات ممثل "الوجودية الجديدة" الإنجليزي كولن ويلسن الذي اتضح له – بعد تحليل جملة من أعمال الوجوديين السابقين- أن "اللاانت.ماء" صفة لازمة تطبَع نفسيات العديد من الكتاب والمفكرين والفنانين...

وبمُكْنتنا الحديث، كذلك، عن الاغتراب عند الفرويدية (Freudisme) التي تركّز على عنصر "اللاّشُعور". فقد تطرق سيغْموند فرويد (S. Freud) إلي مسألة الاغتراب لمَّا تناول العلاقة بين الفرد والحضارة، حيث ر أى أن كل فرد، في الواقع، عَدوٌّ للحَضارة (Civilisation)، هذه الحضارة التي صنعها الإنسان دفاعاً عن ذاته إزاء عُدوان خارجي يتمثل بالطبيعة، بيد أنها جاءت على نحْوٍ يتعارض وتحقيقَ أهدافه وطموحاته، إذ الحضارة تقوم على كبْت الغرائز، ولهذا فهي "عصابية" الطابَع[28].

بوُدّنا أن نتحدث كثيراً عن الاغتراب في الفلسفة، ولكن ضيق المجال لا يسمح بذلك ... وتجب الإشارة إلي أن هناك ثلاثَ ملاحظات رئيسةٍ لا يمكن أن يغفل عنها المطّلعُ على كلام الفلاسفة السالف ذكرُه، وهي كالآتي:

- تناول الفلاسفة – قدماؤهم ومُحْدَثوهم - ظاهرة الاغتراب ؛ فحاولوا تحديدَ مفهومها، وتبيِّن مولّداتها المختلفة، وطرْح الحلول النظرية والعَمَلية لتجاوُزها.

---

[26] - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (حسن حنفي: الاغتراب الديني عند فيورباخ، عالم الفكر، مج.10، ع.1، 1979).

[27] - عبده بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، عالم الفكر، مج .15، ع.1، أبريل- مايو- يونيو 1984، ص13.

[28] - فاطمة طحطح:الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص34.

[29] - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (مراد وهبة: الاغتراب والوعي الكوني، عالم الفكر، مج.10،ع.1، 1979).

"يتعقد الاغتراب بتقدُّم المجتمعات البشرية وتطورها ، إذ "الاغتراب يتضخَّم ويتشعَّب كلما تعقدت المجتمعات البشرية وتطورت"[30].

"نستطيع القول "إن كل المعاني الفلسفية الحديثة -تقريباً- لمصطلح "الاغتراب" تدور حول محور واحد، وهو الانفصال"[31].

وقد انتقل مفهوم الاغتراب من إطار اللاهوت والفلسفة إلي الأطر الإنسانية والعلمية ، فتشعبت معانيه، وارتبط أكثر بواقع الإنسان الداخلي والخارجي. وهكذا، فقد كان لعلم الاجتماع أولاً — ثم للأنثروبولوجيا فيما بعدُ - أثر عميقٌ في مجال دراسة الاغتراب ، وبلْورَة م فهوماته ونظرياته. ويتفق السوسيولوجيون على أن التغيُّر الاجتماعي السريع، والتطور التكنولوجي الهائل، من الأسباب الرئيسة التي تقبَع وراء قيام حالات اغترابية كثيرة في المجتمعات الرأسمالية المصنعة. فالاغتراب، من وجهة نظر علم الاجتماع ، ظاهرة عالمية، تكشف النِّقاب عن انخلاع الإنسان وابتعاده عن الواقع المعيش الذي تحكمه الممارسات الشاذة والمستبدّة. وفي الوقت نفسِه، فالاغتراب مهمٌ لفَضح تناقُضات المجتمع الغربي وعلاقاته الاستغلالية . . . وعلى هذا الأساس، فقد استخدِم "لوَصف مجموعة مختلفة من الظواهر، تتضمَّن الإحساسَ بالانفصال وعدم الرضا عن المجتمع، والإحساس بوجود انهيار أخلاقي في المجتمع، وبالعجز عن مواجهة المؤسسات الاجتماعية والطبيعة اللاإنسانية للمؤسسات البيروقراطية"[32].

أما علماءُ النفس فيَعتبرون الاغتراب سلوكاً مَرَضياً يَعكس موقفاً إنسانياً من الذات خاصةً. وهذا المعنى يمتاز ، من سائر المعاني، بكوْنه يَنطوي على شعور الفرد بانفصاله وانسلاخه عن ذاته. ويُعَدُّ ما كتبه إريك فروم (E. Fromm) في هذا الشأن من أهمّ البُحوث دقة وعمقاً. فقد تناول هذا العالِم موضوع الاغتراب من زاوية "تكوين الشخصية"، فرأى أن الاغتراب هو نمطٌ من التجربة يرى الفرد نفسَه فيها كما لو كانت غريبة عنه. فالفرد يصير — إذا جاز هذا التعبير - منفصلاً عن ذاته"[33].

ولا شك في أن الاغتراب يحضُر أيضاً في الأدب والفن، ويدخل في نسْج خيوط بنية الأدباء والفنانين على اختلاف مستوياتهم العلمية. ومن الصواب أن نقرَّ بأن "كل رائد — مهما كان طابعُه - يَحْوي بذورَ اغترابٍ في بُنيانه الداخلي، وأيضاً كل عمل أدبي أو فني. . . لا بد أن نعثر فيه على جذور للاغتراب منذ أقدم العصور وحتى الآن ، مع التأكيد على أن الاغتراب يَميل نحو التضخم والتشعُّب كلما تقدمنا إلي الأمام، أي إنه يمُدّ جذورَه أكثر كلما اقتربْنا من العصور الحديثة، وخاصة في مجتمعنا المعاصر"[34].

ففي الأدب القديم، نستطيع أن نقرأ الاغتراب في ملحمة هوميروس "الإلياذة والأوديسة "، وفي مسرحيات سوفوكليس، وفي الأدب العبري القديم[35]. . . وإذا تقدمنا نحو الأمام، وتوقفنا عند مسرحيات وليام شكسبير (1564-1616م) قليلاً، فإننا نتلمَّس ظاهرة الاغتراب، ونتبيَّن "أن معظم شخصيات مسرحياته إما هم مغتربون عن الآخرين، أو عن العالم الخارجي، أو عن ذواتهم "[36]. . . وفي القرن العشرين، نجد أن الفكرة المحورية في مسرح برتولد بريخت (B. Brecht) هي مشكلة الاغتراب. ولمَرْكزيتها، فقد جعل

---

[30] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، م.س، ص85.

[31] - أحمد حماد: الاغتراب في الأدب العبري المعاصر، عالم الفكر، مج.24، ع.3، 1996، ص38.

[32] - محمد ذنون زينو الصائغ: اغتراب وغرب، مجلة "آفاق الثقافة والتراث"، الإمارات العربية المتحدة، ع.33، س.9، أبريل 2001، ص ص 60-61.

[33] - للاستزادة ، يمكن الرجوع إلى (قيس النوري: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، مج .10، ع.1، 1979).

[34] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص85، بتصرف.

[35] - للاستزادة فيما يخص جذور الاغتراب في الأدب العبري ، يمكن الرجوع إلى (أحمد حماد: الاغتراب في الأدب العبري المعاصر، عالم الفكر، مج.24، ع.3، 1996).

[36] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص86، بتصرف.

بريخت من مقولة الاغتراب تكتيكاً مسرحياً ، حاول من خلاله علاج هذه المشكلة باعتبارها مرضاً خطيراً رافقَ تطور المجتمع الرأسمالي[37]. وقد عبَّر المسرح العربي الحديث والمعاصر عن مشكلة الاغتراب من خلال جملة من النصوص لمسرحيين كبار، ونذكر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، مسرحية سليمان الحزامي "مدينة بلا عقول" التي تكشف عن تسيُّد الآلة على مُبْدع الآلة، واستحالة الإنسان إلي عَبْدٍ للآلة، ومنه سيادة جَوٍّ من الاغتراب في مدينةٍ ذات بُعد أحادي (المادة)...[38]

وصوَّرت الرواية - من جهتها - مشكلة الاغتراب. ويمكن أن نمثل لذلك برواية "المسخ" لفرانز كافكا (F. Kafka) الذي حاول أن يقدّم لنا من خلالها صورة شاملة وحيّة عن الاغتراب الذي كان يعيشه إنسان عصره. يقول إبراهيم محمود: "إن رواية "المسخ" هي رواية الاغتراب... الاغتراب الذي يُفرزه المجتمع الرأسمالي"[39]. كما يشكل الاستلاب (أو الاغتراب) "أهم سمة تميِّز شخصيات فرانز كافكا في رواياته"[40]. ونلحظُ الاغتراب بارزاً في روايات بلزاك، وزولا، وهيجو، وتولستوي، ودوستويفسكي ، وغيرهم. كما أنه قد تجَذر في الرواية الواقعية والمعاصرة خاصة، سواء في الغرب أو في الشرق. والحقُّ أن الرواية العربية قد صوَّرت — هي الأخرى - واقع الاغتراب، وحاولت معالجته[41]. والذي يقرأ، مثلاً، رواية "نهر الجُنون" لتوفيق الحكيم لا بُدَّ أن يكون قد أدرك أن الرواية تحاول أن تعالج ، بطريقتها الخاصة، مشكلة الاغتراب[42].

ولم تنجُ الفنون الجميلة ، كالموسيقى والرسم والتصوير ، من تأثير مَقولة الاغتراب ، بل إن الفنان المعاصر يعيش حالة من الاغتراب الشمولي الحادّ. وهذا ما صوَّرته التيارات الفنية التي ظهرت في الديار الغربية، حينما عكست الواقع المَوْبوء، والتجأت إلي خَلْق دُنيا أخرى من الأوهام والهلوسات.

وليس من النصفة أن ننكر إسْهام الشعر العربي — قديمه وحديثه - في تصوير الاغتراب بمختلِف صُوَره وملامِحه. فقد عبَّر شعراء العربية منذ الجاهلية إلي يومنا هذا عن الاغتراب المكاني، والنفسي، والاجتماعي ... ويبرُز الاغتراب ، بإلحاح، في قصائد الشعراء المعاصرين، إذ يمثل "ظاهرة عامة في حركة الحداثة في الأدب العربي المعاصر، وما الاختلافُ إلاّ في الدرجة وفي مدى تلاحُم هذا الاغتراب بمحاولات التحديث "التجريب"، وانعكاس كل ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في حركة أدبنا الحديث"[43].

إن ظاهرة الاغتراب (أو الغربة) ليست نتاجاً لفرد معين، وليست وليدة هذا العصر بالذات ، بل تضرب بجُذورها في عُمْق التاريخ، فهي تحضر في أشعار عرب الجاهلية[44]، وشعر الفُتوح الإسلامية، وقصائد العبّاسيين كأبي نواس والمتنبي، وكذا في أشعار الأندلسيين[45]، وأشعار شعراء العصر الحديث كجُبْران ... ولم تفُتِ الشعراءَ المعاصرين ، كأمل دنقل ومحمود مفلح وحسن

---

[37] - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (منى سعد أبو ستة: الاغتراب في المسرح المعاصر من خلال مسرح برتولد بريخت، عالم الفكر، مج.10، ع.1، 1979).

[38] - للاستزادة ، يمكن الرجوع إلى (أحمد العشري: الاغتراب التيك نولوجي في "مدينة بلا عقول" — دراسة تحليلية مضمونية مقارنة، عالم الفكر، مج.25،ع.1، يوليوز- غشت- شتنبر 1996).

[39] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص121.

[40] - مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب: مكتبة لبنان، بيروت، ط 1974، ص9، بتصرف.

[41] - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (فيصل دراج: الاغتراب في الرواية العربية، مجلة "الآداب"، ع.7-8، س49، 2001)

[42] - أحمد أبو زيد: الاغتراب، عالم الفكر، م.س، ص12.

[43] - عبد السلام محمد الشاذلي: حول قضايا التغريب والتجريب في الأدب العربي المعاصر، دار الحداثة ، بيروت، ط.1، 1985، ص72.

[44] - يُنظر مثلاً كتاب "ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات" لمِيّ يوسف خليف.

[45] - يُنظر مثلاً كتاب "الغربة والحنين في الشعر الأندلسي" لفاطمة طحطح.

الأمراني، فرصةُ تناول مسألة الاغتراب. وعليه، يمكن أن نؤكّد "أن الاغتراب من طبيعة الإنسان، بل يمكن القول — والتوكيد على ذلك - أنه دافع أساسي من دوافعه. وهو يختلف من إنسان لآخر، ومن عصر لآخر، وذلك لأنه يتلوّن بطبيعة صاحبه، وبطبيعة المجتمع بما فيه من مؤسسات سائدة، وبطبيعة العصر بقيَمه وأعرافه ومَعارفه".[46]

ويتخذ الاغتراب ثلاث صور رئيسةٍ، هي:

أ- **اغتراب الإنسان عن وطنه وأهله:** وهذه غربة عادية نتلمَّسُها في شعر عدد كبير من الشعراء العرب وغير العرب، في القديم والحديث معاً. وتسمى هذه الصورة الاغترابية "الغربة المكانية".

ب- **اغتراب الإنسان عن مجتمعه الذي يحيا فيه:** وهذا من أعجب أشكال الاغتراب، وأقساها. ويبرز، بقوة، في المجتمعات التي تسطو على الأفراد لتسلبهم فاعليتهم وحُريتهم وإنسانيتهم.

ج- **اغتراب الإنسان عن ذاته:** ويتولّد عنه شعور حادّ بالتوتر، والقلق، وانعدام الثقة... إلخ.

ومن الأمور الأكيدة أن الاغتراب ظاهرة إنسانية شاملة. ولكن الملاحَظ أنها أكثر حِدَّة في المجتمعات الرأسمالية ؛ نتيجة لِما عرفته من تطور اقتصادي هائل، وتغيُّر اجتماعي صارخ قاد إلى تحكم الآلة والمادة في الإنسان الذي أمسى ذا بُعد أحادي ، كما يقول هربرت ماركيوز (H. Marcuse). أما عن واقع الاغتراب في المجتمعات العربية، فيقول زكريا إبراهيم: "إن الاغتراب ليس مجرد قطيعة تتم بين الطبيعة والمجتمع، أو مجرد تصدُّع يحدث بين التكنية والإنسانية، وكأنما هو وَقْف على المجتمعات الصناعية التي بلغ فيها الإنتاج الاقتصادي أعلى مَداه، وإنما الاغتراب أيضاً تعبيرٌ عن الحرمان والضياع، خصوصاً حين يجيءُ المستعمِرُ فيسرق من الجماعة التي يستعمرها أرضَها وحضارتها ولغتها وشخصيتها... إلخ. ومن هنا، فإن الإنسان العربي الذي ذاق مرارة الاستعمار، لم يلبث أن وجد نفسه غائباً عن أرضه وعمله، غريباً في صميم وطنه وفوق تربة أجداده! وهكذا كان الشعور بالاغتراب — لدى الإنسان العربي المعاصر - بمثابة إحساس أليم بالحرمان المادّي والضياع الروحي، وكأنّ المستعمِر قد سَلَبه شخصيته وثقافته، قبل أن يسلُبه أرضه وخيرات بلاده".[47] إذاً، فالاغتراب واقع عاشه — ويعيشه - المجتمع العربي، ولم يعد يقتصر على المجتمع الغربي (أوروبا وأمريكا) الذي بلغت فيه المَدَنِية أوْجها. ويكمُن السِّرّ في الاغتراب الذي يتخبَّط فيه المجتمع العربي، وغيره من دول العالم الثالث، في "أنه مجتمع منتزَعٌ من صميم ماضيه، غائبٌ عن حاضره، وإنْ كان يعمل بجُهد ومشقّة في سبيل بناء مستقبَله".[48]

وللاغتراب آثارٌ جمّة إنْ على مستوى الفرد أو المجتمع. فالمجتمع الذي يعيش الاغتراب يسوده جوٌّ من الاضطراب والفوضى، وتتراجع فيه المَعايير (Normes) التي تضبط سلوك الأفراد، وتختلُّ فيه العلائق الاجتماعية ... وأمام هذا، يلجأ كثيرٌ من أفراد المجتمع إلى إيثار حياة العزلة (Isolation) على الاندماج في النسيج الاجتماعي. أما فيما يخصّ الفرد الذي يعاني الاغتراب، فلا شك في أن صحته النفسية تتدهور وتتأزّم، و"يكون عُرْضة للاضطرابات النفسية، وتضطربُ علاقاته مع الآخرين، ويظهر ذلك في عدم تعاطفه

---

[46] - يُنظر مثلاً كتاب "الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث" لماهر حسين فهمي.

[47] - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص78.

[48] - زكريا إبراهيم: معنى "الاغتراب" عند الإنسان العربي المعاصر، مجلة "العربي"، الكويت، ع.194، يناير 1975، ص ص 153- 154.

[49] - نفسه، ص154.

مع الناس. ويؤثر الاغتراب في العمل والإنتاج بأنواعه المختلفة، فإذا كان الإنسانُ عاملاً هبَط إنتاجُه، وإذا كان طالباً فترَ اهتمامُه بالدراسة، وتتفاعل هذه الجوانب بعضها مع بعض فيؤدي أحدُها إلي الآخر[50].

ولا يجب أن يُفهم من هذا أن الاغتراب ذو طابع سَلبي دائماً. بل يغدو -أحياناً- أمراً مُهمّاً لفضح التناقضات الاقتصادية والاجتماعية، وكشف الممارسات السياسية الشاذة والمستبدة في المجتمع الرأسمالي خاصة.

وأمام هذا الوضع المُزري، كان لا مناص من البحث عن حلول ناجعة لتجاوُز حالة أو حالات الاغتراب الذي أخذ في الاستفحال. وقد جاءت الاقتراحات، هاهنا، متفاوتة الأهمية، مُتمايزة الطبيعة. فقد رأينا آنفاً أن هيجل يرى في تنازل الفرد عن ذاته لصالح المجتمع السبيلَ الأنجعَ لتخطّي واقع الاغتراب وتجاوُزه، وأن ماركس يركز على الثورة ومحاربة المِلكية الخاصة لتحقيق الغاية نفسِها، وأن كيركجارد يزعم أن التمسك بالدين المسيحي هو القمينُ بتخليص الفرد والمجتمع من بَراثِن الاغتراب الجاثِم على صدْر الكيَان الغربي. أما مُراد وهبة فيرى أن من شأن الوعي الكوني المترتب عن الثورة العلمية والتكنولوجية أن يزيل الاغتراب[51]، على حين يزعم آخرون أن الوَعي بالاغتراب هو أولُ مراحل رفع الاغتراب والتغيير[52]. وهذا الرأي الوَجيهُ هو الأقربُ إلي الصَّواب في نظرنا.

مجملُ القول إنه على الرُغم من كثرة ما كُتب حول موضوع الاغتراب — وربّما بسبب هذه الكثرة، وتضارب الآراء والأقوال - فإن مفهوم الاغتراب ما يزال يعاني اللُبْس والغموض، وربّما كان ذلك أمراً طبيعياً، إذ من العسير تحديد المفهومات الأساسية تحديدا دقيقاً، وتعريفها تعريفا جامعا مانعاً نهائياً، كما قال المرحوم محمد عابد الجابري.

---

[50] - محمد ذنون زينو الصائغ: اغتراب وغرب، م.س، ص64.

[51] - ينظر هذا الرأي في (مراد وهبة: الاغتراب والوعي الكوني، عالم الفكر، مج.10، ع.1، 1979).

[52] - منى سعد أبو سِتة: الاغتراب في المسرح المعاصر من خلال مسرح برتولد بريخت، م.س، ص150.

الفصل الأول: الاغتِرابُ في شعر حسن الأمراني.

يسهُل على مَنْ له إلمامٌ بعالم الشعر المغربي المعاصر، والعربي بصفة عامة، التنبُه إلي أن ثمة معانيَ وموضوعاتٍ معينةً تحضر فيه بكثافة، لعدة اعتبارات ذاتية وموضوعية، ومنها تجربة الغربة والاغتراب وما يرتبط بها من معاني الضياع والحزن والألم والمقاساة، ولا سيما حين تعاش داخل الذات في بُعديْها الفردي والجماعي. ويعد د. حسن الأمراني من بين كبار شعرائنا المُحدَثين الذين عبَروا، في كثير من قصيدهم، عن هذا الاغتراب الذي أملَته بواعث عدة، وتخِذ صوراً شتى. والرجلُ، كما هو معروف، واحدٌ من أعمدة القصيدة المغربية المعاصرة وفرسانها المبرّزين، بدأت علاقته بالشعر قبل أزيد من أربعة عقود، وخَبَر دروب الشعر العربي قديمِه وحديثِه، دون أن يُغفِل الانفتاح على الشعر الغربي، ويضم ريبرتوارُه الشعري، الآن، دواوينَ ومجاميعَ شعرية كثيرة جعلته واحداً من أكثر الشعراء المغاربة المعاصرين إنتاجاً. والأمراني من مواليد 1949 بمدينة وجدة، الواقعة شرقَ المغرب، اشتغل أستاذاً جامعياً ردحاً غير يسير من الزمن إلي أن غادر رحاب الجامعة طوْعياً قبل سنوات قليلة، وهو عضوٌ في عددٍ من الهيئات، مثل "رابطة الأدب الإسلامي العالمية"، وله عشراتٌ من الدراسات النقدية المنشورة وطنياً وعربياً. ويعد، في نظر كثير من نقادنا المعاصرين، قطباً من أقطاب الأدب الإسلامي في بلاد المغرب إلي جانب صديقيْه محمد علي الرباوي ومحمد بنعمارة رحمه الله تعالي. وستسعى هذه الدراسة إلي تسليط الضياء على تجربة الغربة لدى شاعرنا الأمراني، من خلال الوقوف عند بواعثها وتجلياتها ومخلّفاتها ونحْو ذلك مما له صلة بها. وسيكون سبيلُنا إلي ذلك قراءة أشعار الرجل ومُدارَستها وتحليلها وتفسيرها للاستدلال على ما ذُكِر وتوضيحه.

لقد اكتوى الشاعر حسن الأمراني بلهيب الغربة والمعاناة داخل وطنه، لأنه لم يستطع أن يكيِّف نفسَه الرِهفة مع وطنه المتخف على مختلِف الواجهات. يقول:

(المتقارب)

. . . نارُ البدايةِ فوْقَ احتِمالي

وفوقَ ظُنُوني

تجَرْجِرُني غرْبَةُ الرّوح نحْو انْشِطاري

وترْمي شَظايا دَمي للمَسافاتِ

ويعبّر الأمراني في النص الموالي عن تشرُّده وتغرُّبه الذاتي داخل وطنه الذي طالما اعتزّ بانتمائه إليه. ويبدو —مظْهَرياً- أنه قد أسند الخطاب إلى مخاطَبٍ آخرَ، ولكنه —في العُمق- يقصد به ذاته العاشقة التي أجْبَرَتها ظروفٌ قاهرة على تحمُّل مشاقّ الغربة داخل بلدها. يقول: (المتدارك)

شَرَّدَتْكَ البلادُ الحَبيبَةُ

واحْتَضَنَتْكَ المَنافي.

أيُّها العاشِقُ المُتغرِّبُ في الذاتِ

أو في البلادِ العَريضَةِ

قدْ شرَّدَتْكَ الحُروفُ

وأسْلَمَكَ الأهْلُ للرّيح

غرَّبَكَ العِشقُ واحْتَضَنَتْكَ السُّجونُ.

ويظل شبحُ الغربة والضياع والمعاناة يُطارد الشاعرَ أينما حلّ وارتحَل، إذ يظهر أن كل شيء في الوجود يُعاكِسه، ويُعرْقل رغباته: (المتدارك)

لِماذا تصرِخُ كُلّ مَحَطّات العالَمِ

حينَ أجيءُ إليْها مُغلقةً؟

ولماذا حينَ أمُدُّ الطّرْفَ إليْها

يَرتدّ إليَّ الطرْفُ حَسيراً؟

ولماذا حينَ أطَوِّفُ في الطُّرُقاتِ

أعودُ، وليس سوى قبْضَةِ ريحٍ بيَدي؟

تتهالَكُ خلفي جُثّتي الغبْراءُ

فمَنْ يَحْمِلُ عنّي جَسَدي؟

وعادةً ما يلازم الحزن الغربة في شعر الأمراني، فتسُود فيه المشاعر الأسيانة، وقهقهات البكاء والأنين، ومظاهر القلق والمعاناة. يقول الشاعر: (المتدارك)

تغَرَّبْتُ

---

[1] - الأمراني: سآتيك بالسيف والأقحوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1996، ص ص 41-42.

[2] - الأمراني: الزمان الجديد، دار الأمان، الرباط، ط.1، 1988، ص65.

[3] - المصدر نفسه، ص ص 18-19.

[4] - نفسه، ص ص 19-20.

فأدْرَكني عُصفورُ الحُزنِ الوَرْدِيُّ

تذكَّرْتُ وَصاياكِ العَشْرَ

بَكَيْتُ على زَمَنٍ لمْ أدْخُل فيه إليْكِ

ولمْ أمْسَحْ ظَهْرَ جَبيني

في أعْتابِكِ،

كانَ الخَوْفُ يُساكِنُني

والقلقُ الأخْرَسُ

والدَّيْدانُ الأخْرى

وانْفرَطَتْ حَبّاتُ الكَلِماتْ.

إن ظاهرة المزج بين حديث الاغتراب وحديث الأحزان في النص الشعري الواحد كثيرةُ الوُرود في الشعر الإسلامي المعاصر.

تقول -مثلاً- الشاعرة رسمية العيباني في قصيدتها "يا ربّ":[5] (الوافر التام)

جِراحِي فاتها الآسِي فرِفقاً بها يا ليلُ.. رفقاً بالقلُوبِ!

وما عَجَبي منَ الأحزانِ.. لكنْ عَجِبْتُ لصَبْرِ خفّاقٍ عَجِيبِ!

فما لي والسَّعادةُ إن قلْبِي غريبٌ في غريبٍ في غَريبِ!!

وفي دواوين الأمراني ومجموعاته الشعرية القيّمة قصائدُ عديدة جمع فيها الشاعر بين تصوير واقع الغربة والتعبير عن قلبه المكلوم الذي ينفطر حزناً وأسىً على ما آلَ إليه حالُ مجتمعه وأمّته من تخلف وتقهقر واضحيْن في مختلف الميادين الحيويّة.

إن غياب شمس الحرية في شتى أنحاء أمته، وتنامي درجة قمع المواطنين، والإجهاز على حقوقهم بغير حقّ، من الدوافع المباشرة التي تفسّر غربة الأمراني وتبرُّمَه من واقعه المَعيش. يقول الشاعر مستهلاً كلامَه بأسلوب المُفارَقة (Ironie)[6]: (الكامل)

لا تسألوا عنّا، فنحنُ بألفِ خَيْرٍ،

ليْس يُعْوِزُنا سوى أنْ ترْفَعُوا عنّا وِصايَتَكُمْ

أيادِيكُمْ

لنَغْدُوَ مِثلما الأسْماكُ تسْبَحُ في مُحيطاتٍ

بغيْرِ مَدىً

لتعْبُرَ هذه الأطْيارُ بحْرَ المَوْتِ والظُّلماتِ

نحْوَ الفَجْرِ

إذاً، فالشاعر لا يطلب من صُنّاع القرار ومسيِّري دواليب الحكم في أقطار العالم الإسلامي الشاسع رُمَّتها إلا رفع أيديهم عن شعوبهم، وتمتيعهم بحُريتهم التامة ليعيش أفراده أحراراً طلقاءَ قادرين على تسْيير حياتهم ، واقتيادها نحو فجر الأمان. ومما يزيد الطين بلّة أن حكام المسلمين يخُونون شعوبَهم، ويعبثون بأرواحهم وممتلكاتهم ومعتقَدهم. يقول[7]: (الكامل)

والمُتْرَفُونَ

---

[5] - مجلة "الأدب الإسلامي"، ع.19، مج.5، 1419هـ، ص108.

[6] - الأمراني: القصائد السبع، المطبعة المركزية، وجدة/ المغرب، ط.1، 1984، ص40.

[7] - نفســه، ص ص 43-44.

في ليلةٍ حمْراءَ باعُوا الشَّعْبَ،

باعوا الأرْضَ

باعوا الدّينَ، واستلمُوا الثمَن.

وفي ظل هذا الجوّ القائم، يبقى الجهاد خيرَ وسيلة للخلاص[8]:

فتزوَّدوا، يا أيُّها الفُقراءُ، إن الزّادَ في ليل المِحَنِ:

البُنْدُقيةُ والكَفَن.

ويزداد شعور الأمراني بالغربة والمعاناة في كنف وطنه، وأمتِه ككلّ، كلما تزايَدَت الضغوطُ على أبناء هذا الوطن مستهدِفةً سلْبَهم حريتهم، وحمْلهم على الخُنوع... ويظل الإنسان متّهماً ومضطهَداً في بلده إلي حين إعْلانه التنازلَ عن حُرّيته، والخُضوع لإرادة الآخر. يقول الأمراني:[9] (الوافر)

أنتَ إنْ غُنّيْتَ مُتهَمْ

ومُتهَمٌ إذا ألْجَمْـتَ

متهَمٌ وقفْتَ أو انطلقْتَ

صرَخْتَ أو أعْلنْتَ موْتكَ — قبْل مَوتِكَ - مُتّهمْ

حتى تقولَ: نعَمْ.. نعَمْ!

يبدو -ظاهرياً- أن الشاعر يخاطب شخصاً آخر، ولكنه —في الحقيقة- إنما يوجّه الكلامَ إلي ذاته المغتربة التي تنفطر حزناً وأسىً على واقِعها الكئيب. وكثيراً ما استند إلي قصص القرآن ومعانيه لتصوير حالته الأليمة، ولحَمْل ذاته على الفَأل والجَلَد. يقول مُتناصّاً مع سورة يوسف المكّية[10]: (الكامل)

يا صاحِبَيْ سِجْني، نِداءُ المَوْتِ مُنْتشِرٌ

وهذا الليلُ مُعْتكِرٌ

وصَوْتُ الفجْر مُنْتظَرٌ

ففيمَ تراكُما تستفْتيانْ؟

ويقول الشاعر مواصِلاً تصوير العذاب وحال الموت العام الذي يلفُّ كلّ جوانب مُعْتقَلِه[11]:

يا صاحِبَيْ سِجْني، هنا ظَمأ ومَخْمَصَةْ[12]

وإنسانٌ يَموتْ

أَلموْتُ يَدْنو مِنْ (عُلُوّ) عِمامةٍ

أو مِن جَناح حَمامةٍ

حطّت بِبابِ الغارِ

---

[8] - نفسه، ص44.

[9] - نفسه، ص36.

[10] - نفسه، ص25.

[11] - نفسه، ص27.

[12] - أيْ جوع.

أوْ من خيْط هذا العَنكبُوت

الموْتُ يدْنو في القَصيدَهْ

في افتِتاحِيَةِ الجَريدَهْ

الموْتُ يَدْنو من مَواقِفنا الجَديدَهْ.

وتغرَّب الأمراني في دُنيا الشعر ردحاً من الزمن طالباً ما هو أفضل:[13] (المتقارب)

تغرَّبْتُ عِشْرينَ عاماً بمَمْلكةِ الشِّعْر

أطلُبُ مَمْلكةَ السَّيْف والأقْحُوانْ

وأوْغلْتُ حتى نعَتْني الطُّلولْ

وفي آخِرِ الخَطْو، قبْل انْهياري

وَجَدْتُ انْتِصاري

لأنّي وَجَدْتكِ في ذلِكَ الأرْخَبيلْ.

تحضر في هذه المُقطَّعة الشعرية ثنائية (الموت ≠ الحياة)، أو (الانهيار ≠ الانتصار)، أو (السيف ≠ الأقحوان)، والتي تحيل إلي طائر العنقاء الذي يحترق، ولكنه بعد مدة معينة ينبعث من رماده حيّاً، كما تقول الأسطورة المعروفة . وقد استغلَ الأمراني أسطورة العنقاء – بصُوَر مختلفة - في جُل قصائد ديوانه "سآتيك بالسيف والأقحوان" كما قال د. محمد علي الرباوي في تقديمه لهذه المجموعة الشعرية. ويحسُن بنا أن نشير إلي أن الشعر المعاصر بعامّة يُكثر من استخدام تقنية التناص/ الاقتباس سواء من القرآن الكريم أ و من الحديث الشريف أو من التراث بشقيه العربي والإنساني. ثم إن هذا التناص يحضُر في النص الشعري لهدفين اثنين، أحدهما دلالي بحيث يساهم في توضيح دلالة النص وإثرائها، والآخر فنّي إذ يُضفي على النص ذاته جَمالا ورَوْنقاً ، ويجعله أكثر تأثيراً . . . كما أن الأمراني أفرَدَ ديوانه المذكور للحديث عن المرأة حديثاً يختلف عن حديثه عنها في السبعينيات.

إن اغتراب المسلم في وطنه ظاهرة بارزة في الشعر الإسلامي المعاصر. وهذا من أغْرب الأشكال الاغترابية وأعجَبها وأقساها كذلك. يقول، مثلاً، المرحومُ فريد الأنصاري مصوِّراً غربته بين أحضان وطنه الذي عبث به المدّ الشيوعي الطاغي، فأمسى كل شيء فيه غريباً:[14] (الكامل التام)

-وَطَني- ففيكَ نفيتُ عنكَ.. ترى أ قدْ يبْقى لِخِلّكَ في قبُورِكَ مَرْقَدُ؟

ها كُلُّ شيْءٍ فيكَ يَنْكُرُ ذاتَهُ: الماءُ، والشَّجَرُ الكَئيبُ المُجْهِدُ

واللوْنُ، والذوْقُ المُغرَّبُ، والحِجا والنوْمُ، بلْ حتى الرُّؤى تستَوْرِدُ

هذا اللوْنُ تسَمَّمَتْ أنسامُهُ لمّا تثاءَبَ فيهِ ذئبٌ مُلحِدُ

بَلَدي الحَبيبُ، أ هكذا قدْ أصْبَحَتْ (لاتُ) و(عُزّى) فوْقَ أرْضِكَ تعْبَدُ؟!

ويقول، أيضاً، أحمد مطر في إحدى لافتاته معبّراً عن واقع القمع والاغتراب الذي يعيشه المسلم تحت سماء بلده:[15] (الرجز)

المَرْءُ في أوْطانِنا

مُعْتقَلٌ في جِلْدِهِ

---

[13] - الأمراني: سآتيك بالسيف والأقحوان، ص34.

[14] - فريد الأنصاري: ديوان القصائد، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط.1، 1992، 1/35-36.

[15] - أحمد رزيق: ومن الشعر ما قتل، مجلة "المشكاة"، وجدة، ع.8، س.2، شتاء 1988، ص54.

مُنذ الصِّغَرْ

وتحْتَ كُلّ قطْرَةٍ مِنْ دَمِهْ

مُختبئٌ كَلْبُ أثرْ

بَصْماته لها صُوَرٌ

أنفاسُهُ لها صُوَرٌ

أحْلامُهُ لها صُوَرٌ

اَلمرْءُ في أوْطانِنا

ليْسَ سوى إضْبارَةٌ[16]

غِلافُها جِلدُ بَشَرٍ

أيْن المَفَرّ؟

ويقول المرحوم محمد المنتصر الرّيسوني، في الإطار نفسِه، واصفلًما حاق بمسلم أفغانيٍّ في كنف بلاده من صُنوف التعذيب وضُروب المعاناة أيّام الاجْتياح السوفياتي لأفغانستان. ورغم كل ذلك، فقد حمَل مشعل التحدّي والصُّمود حتى آخِر رَمَق من حياته: [17] (الوافر)

بلالٌ في كَبُولٍ باتَ في حَبْسِ

بطاقَتُهُ تقولُ بأنّه مُسلمْ

شَهادته تقولُ بأنّه مُسْلمْ

مَحبَّته تقولُ بأنّه مُسلمْ

أبو جَهْلٍ يُجَرِّدُه من الثوْبِ

أبو لَهَبٍ يُمَزّقُ جلدَه ضَرْباً

بلالٌ في كَبُولٍ باتَ في حَبْسِ

أذاقُوه صُنوفَ الذلّ والرِّجْسِ

فمَا وَهَنَتْ قُواهُ وبَاحَ بالسِّرّ

تحَدّى ظُلْمَةَ القَهْرِ

وأمْسى شاهِدَ عَصْرٍ

هذه بعضُ نماذج الشعر المعاصر التي تصوِّر غربة الإنسان داخل وطنه الأصل. وقد عانى الأمراني نفسُه مرارة هذه الغربة، وعبَّر عنها في مواضعَ كثيرةٍ من دواوينه. يقول الشاعر في كامليّته الرائعة:[18] (الكامل التام)

ما لي أُطارَدُ في البلادِ كأنّني بيْنَ الجَماَلِ النّاقَةُ الجَرْباءُ

ويقول في قصيدته التفعيلية "الحقيقة"، مُفتتِحاً كلامَه باستفهام استنكاري:[19] (الرمل)

أ غريبٌ أنا في أرْضيَ؟

---

[16] - حزمة من الصحف أو من السهام. وتجْمَع على (أضابير).

[17] - المشكاة، ع.12، س.3، شتاء 1990، ص81.

[18] - مجلة "الأدب الإسلامي"، ع.19، مج.5، 1998، ص23.

[19] - الأمراني: جسر على نهر درينا، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط 1992، ص40.

هيْهاتَ.. أبي رَوَّى ثرَاها

كُلُّ شِبرٍ فوقَها يَشْهَدُ أنّي مَنْ بَناها

ورَعَاها

وسَقَاها

وأنا الذي جَمَّلْتُ من حُلَلِ الهُدى أقْطارَها

ورَفَعْتُ ألْوِيَةَ السَّلامِ بها وشِدْتُ مَنارَها

وأبي الذي من أجْلِها أعْطى دَمَهْ

ضَحّى لتبْقى مُسْلِمَهْ.

فمِنَ النص تتراءى لنا صورة رجُل أبيٍّ غيُور يَستنكر الاغتراب داخل وطنه الذي ضحَّى أجداده بالنفس والنفيس ليبقى مسلما حُرا شامخاً. ولم يكن مُستساغاً قبولُ الشاعر التغرُّبَ داخل ذلك الوطن الذي يشهد كلُّ ما فيه أنه مَنْ حفظ الحياة له، وأعلى شأنه ولواءَه، وشيَّد معالمه. ولكنّ حلكة الواقع وقتامة الظرف تدفعان الأمراني في أحايينَ كثيرةٍ إلي الإحساس بالضياع والاغتراب داخل وطنه الذي ليس حالُه بأحسنَ من حالِ الشاعر:[20] (الكامل)

يا وَطَني، لأضْيَعُ أنتَ مِنْ أعْمَى

يُفتشُّ في دُجى غَرْناطةْ

عَن صاحِبٍ يُغْنيهِ

أو عَن مَلجإٍ يُؤْويهِ

يا وَطني المُسَجَّى في الزَّنارِنْ.

والملاحَظُ أن في النص اقتباساً واضحاً من قولة أحد الشعراء الإسبان: "ما من أحد أضْيع من أعمى في غرناطة". وهذا دليلٌ خرَيتٌ على انفتاح شاعرنا على الأدب العالمي والإنساني، كما هو بالنسبة إلي غيره من رواد القصيدة الحُرة في الوطن العربي.

وبالرغم من شعور الأمراني بالتغرب بين أحضان وطنه، وبالرغم من تخلف هذا الوطن وتخبُّطه في دُجى الآلام والمحن ، فإننا نُفي الشاعرَ مُعتزاً بوطنيته أيَما اعتزاز، ذلك بأن "الوطنية عنده بمثابة جمْر الغضا أو خنجر يسعى على جسده، يغوص في قراره السحيق ليَجدَ موطنه الأصلي وهو القلب"[21]. يقول[22]: (الوافر)

(ولي وَطنٌ آليْتُ ألاَّ أبيعَهُ)

ولي وَطنٌ

يُجَوِّعُني فأطْعِمُه شَرايِيني

ويُظْمِئُني فأسْقيهِ دَمي المَخْبوءَ في ليْلِ المَساكينِ

إن في النص ثنائيتين ضِدِّيتين بارزتين ومتقاطعتين أسْهمتا في إبراز مقدار اعتداد الأمراني وتمسُّكه العميق بوطنيته، فإذا كان وطنه يُسيء إليه، فإنه يواجه إساءَته بالإحسان، وهذا من الخِلال الحميدة التي يحضُّ عليها ديننا الحنيف. والبيان التالي يوضح ذلك:

---

[20] - الأمراني: القصائد السبع، ص19.

[21] - بلقاسم الجطاري: أبواب ونوافذ (دراسة)، دار النشر الجسور، وجدة، ط.1، 2001، ص140.

[22] - الأمراني: الزمان الجديد، ص70.

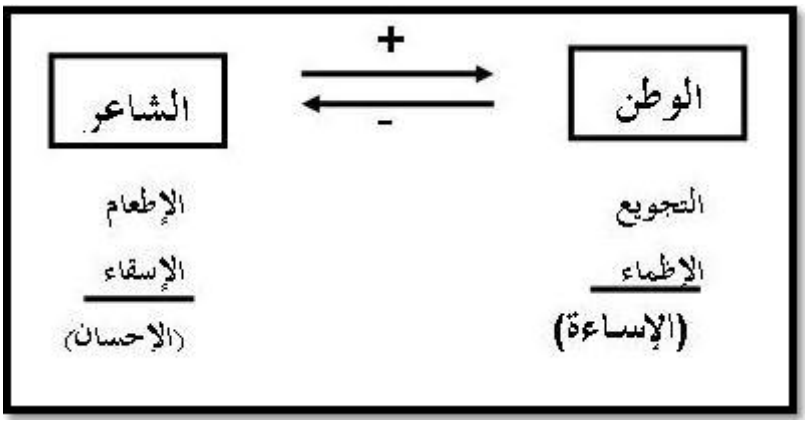

يبدو من الخطاطة أعلاه أن الوطن طرف سلبي/ مُسيء، والشاعرَ طرف إيجابي/ مُحسِن. ورغم ذلك أنشأ الشاعر علاقة حميمة مع وطنه. وقد يستغرب الإنسان من هذا الأمر للوهلة الأولى، ولكن الأمراني الذي عاش تجربة الغربة والمعاناة يدرك أهمية الوطن والحرية، لذا نجده شديد التشبث بوطنيته وانتمائه لأرضه وشعبه:[23] (الرمل)

فأنا ابْنُ هذي الأرْضِ،

وأنا ابْنُ هذا الشَّعْبِ، أعْلنتُ انْتِمائي

يَوْمَ أعْلنتُ انْبثاقَ الفَجْرِ مِنْ (طَهَ) و(نُونْ)

ولما كانت الغربة قاسية في أغلب الأحيان، فإن أكثر الشعراء العرب المعاصرين قد عبّروا في أشعارهم عن تشبُّثهم الصميم بوطنيتهم وأوطانهم. فهذا المرحوم الزبيري اليَمَني يكشف عن اغترابه وعدم اطمئنانه سوى في وطنه الحبيب الذي غادره كرهاً:[24] (مجزوء الرمل)

واغْترابٍ بيْنَ غابـاتٍ

... مَخفِياتٍ فسِـاحِ

وحيـاةٍ في صِـراعٍ

ونضـالٍ وكِفـاحِ

لمْ أجِدْ لَمْـعَةَ نـورٍ

في اغْتِرابي وانْتِـزاحي

في سِوَى عُشِّـي لا تنزلْ

... أضْـواءُ الصَّباحِ

ويقول العتباني المصري مصوّراً تعلقه بوطنه الذي تمكّن من دمه وقلبه، هذا الوطنِ الذي يعد مصدرَ الارتياح والاطمئنان:[25] (الكامل)

وَطنٌ بَعيدٌ في دَمي...

---

[23] - الأمراني: القصائد السبع، ص ص 30-31.

[24] - محمد محمود الزبيري: ديوانه، دار العودة، بيروت، ط.1، 1978، ص ص 222-223.

[25] - طاهر العتباني: الطريق إلى روما، من منشورات مجلة "المشكاة"، ع.30، مج.8، 1999، ص90.

وَطنٌ بَعيدٌ

وَطنٌ يَطيرُ بقَلْبي العَاري . . .

ويُنْسيهِ الحُدودْ

وَطنٌ إليهِ يَلُوذ صَدْرُ المُتعَبينَ . . .

القابضينَ على الجَمَـارْ

وقد بلغ حبُّ الوطن بأمير الشعراء أحمد شوقي حَدَّ تفضيله له على الخلود. يقول في سينيّته الشهيرة:[26] (الخفيف التام)

وَطني لوْ شُغِلْتُ بالخُلْدِ عنهُ نازَعَتْني إليه في الخُلدِ نفْسي

ولا غرو في هذا، فـحُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإيمانِ[27]، كما في القول المأثور. ولما كانت "الغربة كُربة" ، كما يقال، فإن الإنسان يرتبط بأرضه الأم ارتباطاً قوياً مادياً ومعنوياً، ويَحنُّ إليها في حالة غُربته عنها مكانياً. يقول وهيب طنوس: "إن ارتباط الإنسان مع الأرض يمكن رصْدُه من ارتباط مادي عضوي، كارتباط النبات بها، إلى ارتباط معنوي، حين اتصل بقضايا الحرية: (لا وطن بلا حرية، ولا حرية بلا وطن). وأحيانا يصبح شعور الوطن بشكل مباشر متعلقا بمفهوم الفقر والغنى: (الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة يزيل شعور الاغتراب عن الأرض). لكن، بغض النظر عن هذا، فإن الأرض التي ولد عليها الإنسان وفيها نشأ وترعرع، تشده إليها دوما، مهما تطورت مفاهيمه عن الوطن، ومهما حاول الاغتراب والتنقل والارتحال."[28] ومن الأمثلة التي يمكن أن نسُوقها، ه اهنا، لإثبات مدى تعلق الإنسان بوطنه الأصلي، تجربةُ شعراء المهجر الذين "طلبوا الحرية فكانت. وطلبوا المال فكان. ثم اشتاقوا إلى الأوطان، فوجدوا في الشعر متنفسًا."[29]

ويكون الإنسان سعيداً ومطمئناً كلما كانت حياته في وطنه كريمة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وإلا فعليه الفرار والبحث عن وطن آخر، إذ "لا يمكن أن يَرْضى بالدنيّة إلا حمار البيت."[30] مؤدَى ذلك أن الإنسان لا يترك وطنه إلا لوجود سبب قاهر، وهذا ما يشير إليه قول الشاعر المصري الإسلامي المعاصر صابر عبد الدايم:[31] (الرجز التام)

أ يَرْحَـلُ العِطْرُ عَنْ حَدائِقِهِ وفي الرَّحيلِ الهُوانُ. والوَصَبُ[32]؟!!

لقد كان هذا الاستطراد مفيداً —في نظرنا- لدعم فكرة تعلق الأمراني خاصة، والشعراء الإسلاميين المعاصرين عامة، بوطنيّتهم تعلقا صادقاً. وقد تبيَّن، من خلال نَمُوذجاتٍ سابقة، أن الأمراني شديدُ التعلق بوطنه، كثيرُ الاعتزاز بوطنيته، بالرُّغْم من كل ما يُلاقيه من إساءة وهموم وتغريب داخل أسوار بلده الذي تغاضى مراراً عن تضحيات أبنائه الأبرار. ويحسُن بنا أن نشير إلى أن الباحث بلقاسم الجطاري كان قد خصَّص حيّزاً من كتابه "أبواب ونوافذ" للحديث عن مفهوم الوطنية عند شاعرنا د. حسن الأمراني.[33]

---

[26] - أحمد شوقي: الشوقيات، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، 46/2.

[27] - حديث موضوع كما قال الصنعاني وغيرُه. (الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.4، 1398، حديث رقم36، 55/1)

[28] - وهيب طنوس: الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، ص 331. نقلاً عن (عبد الرزاق الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1982، ص43).

[29] - كريم جبر الحسن: شعراء المهجر...، مجلة "العربي"، الكويت، ع.194، يناير 1975، ص172.

[30] - الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، ص43.

[31] - مجلة "الأدب الإسلامي"، ع.22، مج.6، 1420هـ، ص48.

[32] - المرض والوجع الدائم وتُحول الجسم.

[33] - يمكن الرجوع إليه في الكتاب المذكور، من ص120 إلى ص143.

وعِلاوة على "الغربة الفردية"، تحدَّث الأمراني، في شعره، عن "الغربة الجماعية" التي لا تقتصر على شخص الشاعر وَحدَه، بل تمتد لتشمُل سائرَ أفراد بلده، وكذا أمته. وقد كان شعر الأمراني —حقّاً- بمثابة مرآة تعكس آلام أبناء وطنه وآمالهم، وتبرز اغترابهم وضياعهم. يقول:[34] (الرمل)

ضاعَ مِنّا الظّلُّ في الصَّحراءِ

ضاعَتْ قسَماتُ الوَجهِ مِنّا

وتضاريسُ الجَسَدْ

ما الذي يَحدُثُ للنَّهْرِ إذا جَفَّ وغاضَ النَّبْعُ

ما يَبقى؟ غُثاءٌ وزَبَدْ..

هذه هي صورة الضياع التام الذي يعيشه الشاعر بمعية جماعته، وهي صورة تولدت ، أساساً، من الابتعاد المتزايد عن النبع الصافي المتدفّق الذي يتمثل بشريعة الله السَّمْحاء. ويواصل الشاعر وصف حياة الغربة والتشرد قائلاً:[35]

وتشَرَّدْنا قُروناً في المَجاهِلْ

وتعَلقْنا بباطِلْ

فإذا الكَوْنُ دُخَانٌ ورَمادْ

وإذا الأمْرُ جَميعاً قدْ تلاشَى مِنْ يَدَيْنا

لمْ نجِدْ غَيْرَ البُكاءْ.

وهكذا بدا كل شيء حالكاً وضائعاً، في نظر الشاعر وأبناء وطنه. ولم يَلْفوا، في المآل، سوى البكاء والنحيبِ الذي لا يُسْمن ولا يُغني من جوع. وإنّ الدمع المِدْرار لا يُجْدي في هذه الغربة القاسية التي سبَّبها الابتعادُ عن الدين الإسلامي الحَنيف ، وتغَيبُه في الممارسة الواقعية:[36]

وبكَيْنا..

وبكَيْنا..

لمْ يَعُدْ شَيْءٌ إلَيْنا

في سَراديبِ الهَزيمَة.

وإمعاناً منه في تأكيد العلاقة الجدلية بين تغييب الدين عن الحياة وسيادة الغربة القاتمة، يقول الأمراني:[37] (الكامل)

عُمْرٌ مِنَ السَّنواتِ مُنْصَرِمٌ

وشَمْسُ اللهِ غائِبَةٌ

نسِينا دِفْئَها المَوْعودَ

إنّا قدْ نسِينا أنّنا أشْباهُ مَوْتى

أنّنا غُرَباءُ لمْ نَضْجَرْ مِنَ الضَّجَرِ الذي يُزْجي

---

[34] - الأمراني: القصائد السبع، ص46.

[35] - نفسه، ص47.

[36] - نفسه.

[37] - الأمراني: الزمان الجديد، ص ص 61-62.

عَصَائِبنا بمِهْمازِ الأسَى.

ومن أبرز ما يَسِمُ هذا التشرد والاغتراب الجماعي كونه مستمرّاً. يقول:[38] (المتدارك)

شَرَّدَتنا القَوافي

أيُّها العاشِقُ المُتغَرِّب: أنتَ أنا!

نتحَرَّكُ عبْرَ دِماءِ الجَماهيرِ

قدْ نستريحُ قليلاً ونأوي إلى أدْرُعِ الضُّعَفاءِ

لنُعاوِدَ رِحلَتنا

ويقول الأمراني في التعبير عن اشتعال نار الغربة التي مَدَّت لهيبَها لتشمل كِيان الشاعر والمرأة المقصودة بكاف الخطاب: [39] (الرمل)

وكِلانا، يَوْمَها، آنَسَ ناراً لا تشيخْ

لِكِلينا غُرْبَةٌ مُشْتعِلَهْ

وعَلينا مِنْ دَمِ العُشّاقِ سُؤرٌ[40] ووشاحْ

وأنا دُونكِ مَقْصُوصُ الجَناحْ

فلْنرَتّلْ، يا ابْنةَ النُّور، سَوِيّاً:

(فلمّا جاءَها نُوديَ أنْ بُورِكَ مَنْ في النارِ وَمَنْ حَوْلَها، وسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العالمينَ)[41]

إن حضور عنصر المرأة في هذا النص، وفي جميع نصوص ديوان الأمراني "سآتيك بالسيف والأقحوان"، محفوفٌ بلغة تتأجّج عِفّة وطُهْراً، ويغلب عليها النفَس الصُّوفي. فقد خصَّ الشاعرُ هذا الديوانَ رُمَّته بمِ دْح المرأة المؤمنة المخلصة التي استطاعت أن تصمُد في وجه ريح التغريب المخرِّبة، غير مُبالية بمظاهر الحضارة الغربية الزائفة. وهذا التناول يختلف تمامَ الاختلاف عن كيفية تناول الشاعر نفسه لموضوع المرأة في سنوات السَّبعين. فالشاعر استحضر في النص السابق عنصر المرأة، في نظري، لغرض التعبير عن استفحال ظاهرة الغربة وامتدادها لتشمل الذكر والأنثى معاً. وفي خاتمة النص عَيْنِه إشارةٌ إلى ضرورة الأخذ بخَصيصة التفاؤل والتمسُّك بالقرآن بوصْفِهما خيرَ وسيلتيْن لتجاوُز حال الغربة والتغرُّب.

لقد تأكد من خلال الوقوف عند بعض الأشعار الأمْ ـرَانيّة أنه قد "تآزرت هموم الذات وهموم الجماعة داخل جغرافية القصيدة الإسلامية، لتخلق سمْفونية الغربة والمعاناة لدى الشاعر الإسلامي المعاصر".[42]

والحق أن مصدر الغربة الأساس يتجلى في البُعد عن المِلة الإسلامية وتغييبها من الواقع الحياتيّ المَعيش. يقول الشاعر الإسلامي المعاصر عدنان علي رضا النحوي:[43] (البسيط التام).

أنا الغَريبُ إذا فارَقْتُ حانِيَةً مِنَ الكِتابِ وآياتٍ مِنَ الحِكَمِ

---

[38] - نفســه، ص66.

[39] - الأمراني: سآتيك بالسيف والأقحوان، ص104.

[40] - ما يبقى من الماء في الإناء. أو هو البقية مطلقاً. وتُجمع "سؤر" على "أسْآر".

[41] - سورة النمل، الآية 8، رواية الإمام ورش.

[42] - عمر الملاّحي: تجليات الوعي في القصيدة الإسلامية المعاصرة، رسالة جامعية لنيل د.د.ع. مرقونة مسجلة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة (المغرب) تحت رقم 50، نوقشت يوم 1999/12/19، ص150.

[43] - مجلة "المشكاة"، ع.12، س.3، شتــاء 1990، ص44.

أنا الغريبُ إذا جاوَرْتُ مُعْتقَدي ورُحْتُ أضْرِبُ في وَهْمٍ وفي رَجَمِ

أنا الغريبُ إذا استسلمْتُ عَبْدَ هوىً وعَرْبَدَتْ شَهَواتُ العُمْرِ مِلْءَ دَمي

وغُرْبَةُ النَّفْسِ تشقى كُلَّما نزَعَتْ نظرَةٌ إلى صَنَمٍ يَهْوى إلى صَنَمِ

وفي غمرة المِحن والإحَن واشتداد وطْأة الغربة، لا يجد الإنسان ملجأ خيْراً من الفرار إلى الله تعالى. يقول الأمراني: [44] (المتدارك)

لقدْ كَبرَتْ في القلْبِ شُجَيْراتُ الحُزْنِ

وعَذَّبَني الطّينْ

وأنا أحْمِلُ أوْزاري

وأمُدُّ الطَّرْفَ إلى أنْوارِكَ:

(أدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ يا اللهُ

وأخْرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ)

ويقول الشاعر الإسلامي المعاصر أبو فراس القطامي في قصيدته "أوَاه.. يا زمن!!": [45] (البسيط التام)

يا رَبِّ ضاقتْ بنا الدُّنْيا وذا الزَّمَنُ والليْلُ طالَ بنا واشْتَدَّتِ المِحَنُ

أنْتَ الرَّجاءُ لنا يا خَيْرَ مُلْتجإٍ يا مالكَ المُلْكِ مِنكَ النَّصْرُ والمِنَنُ

ويجد المرحوم نجيب الكيلاني راحته في ذكْر الله، حيث يقول: [46] (مجزوء الوافر)

ذكَرْتُ اللهَ يا ليْلى وآياتٌ لهُ غُـرّاَ

فماجَ الشَّوْقُ في قلْبي وجَذْبُ حَياتي اخْضَـرّاَ

وقد يجد الشاعر متنفَّساً لحزنه وغربته في التحلّي بالصبْر والتجلُّد. يقول المرحوم الزبيري في قصيدةٍ له: [47] (الرجز التام)

إنْ كانتِ الغرْبَةُ تشْجيني فما يَخذُلُني الصَّبْرُ ولا التَّجَلُّدْ

وثمة ملاحظة بارزة حَريٌّ بنا أن ننبَّه إليها في هذا الصدد، وهي الحضور المكثف لمعجم الحزن والأسى في شعر الأمراني نتيجةً لِما لاقاه الشاعر من صُنوف المعاناة وأنواع الهُموم من وجهة، ومن وجهة أخرى نجد أن هذا الحزن ينفلت من قبضة الذاتية ، ذلك بأن الحزن الذي يتحدث عنه الشاعر حسن الأمراني، حسب الباحث الجزائري علاوة وهبي، "ليس حُزْنا ذاتياً، وإنما هو حزن إنسانيّ يحْمِله الشاعر على أكتافه، لأنه يحمل هموم بَني وطنه، ويحمل قضاياهم ومشاكلهم". [48]

لقد نظَم شعراء معاصرون كُثر قصائدَ من الوفرة بمكان في سياق التعبير عن المدينة بوصفها فضاءً للأحزان والغربة والوَحْشة. وهذا ما نلمَسُه عند الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في كثير من قصائد ديوانه الأول "مدينة بلا قلب"، وعند الشاعر صلاح الدين عبد الصبور في بعض قصائد ديوانه "الناس في بلادي"، وأيضاً عند المرحوم بدر شاكر السّياب في عددٍ من قصائده ، ولا سيم ا بعد أن ترَك قريته الأثيرة (جيكور) ليتّجه صوْبَ المدينة (بغداد)... وتعُجُّ المكتبة النقدية المعاصرة بكتابات ومقالات في موضوع تجربة غربة

---

[44] - الأمراني: الزمان الجديد، ص ص 17-18.

[45] - مجلة "الأدب الإسلامي"، ع.19، مج.5، 1419هـ، ص73.

[46] - نجيب الكيلاني: ديوان مهاجر، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1986، ص59.

[47] - الزبيري: ديوانه، م.س، ص164.

[48] - مؤخّرة ديوان حسن الأمراني "القصائد السبع"، ص73.

الشاعر المعاصر في عالم المدينة الذي صار، في الغالب، مصدراً للقلق والشَّجَن والوَحدة.[49] وقد أثير نقاشٌ حادّ حول مدى صِدق هذه التجربة أو زَيْفها، حيث انقسم الدارسون حِيال هذه المسألة إلى فريقين اثنين، أحدهما يقول بصدق هذه التجربة وأصالتها، على حين يذهب الفريق الآخر إلى القول بزَيْف هذه التجربة. . . ويعد الشاعر حسن الأمراني واحداً من الشعراء المعاصرين الذين يستحضرون ، في شعرهم، المدينة الحديثة وتجربة الحياة داخلها. فالمدينة، في نظر شاعرنا، فضاءٌ للتوجُّس والخوف والمتناقِضات، حيث يختلط فيها الأمن بالرُّعب، والنور بالظلام، والحقّ بالباطل:[50] (المتدارك)

نتساكَنُ في المُدُنِ الخائِفةْ

نتحرَّكُ في المُدُن اللَّوْلَبِيَّة، يَقتاتُ مَنْ دَمِنا الصَّنَمْ

الجاهِليُّ، ويَختلِطُ الأمْنُ بالرُّعْب، يَختلطُ الفَجْرُ باللَّيلِ،

تختلِطُ القِيَمُ الحَقُّ بالقيَمِ الزّائِفَةْ.

ولا يرى الشاعر شيئاً في المدينة عدا القتامة والقمع المستمر الذي يطال الجميع:[51] (الرجز)

تمُرُّ بي عَبْرَ رُبُوعِ المُدُن الحَمْراءِ

والبَيْضاءِ

والخَضْراءِ

فلا أرَى غَيْرَ شَريطٍ داكِنٍ

يُدَجِّنُ الرِّجالَ والنِّساءْ

وغَيْرَ سِكّينٍ على الأعْناقِ

والثدْيِ في الصبَّاحِ والمَساءْ.

وهناك قصائدُ أخرى كثيرة للأمراني تندرج في هذا الإطار، وتعبر —في مُجْمَلها- عن واقع الضياع والاغتراب في فضاء المدينة الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، والجيّد بالرديء. وهكذا، فالأمراني عاش تجربة الغربة والمعاناة في المدينة، وصوَّر تفاصيلها. وهذا بخلاف علاقة الرومانسيين العرب بالمدينة، حيث إنهم لم يستطيعوا العيش في عالم المدينة الذي يعُجّ بالضوضاء والمتناقضات والأشجان، ففرّوا بكياناتهم إلى عالم الطبيعة والغاب والريف حيث الصفاءُ والهدوء والتناغم مع الطبيعة.

ومن الأسباب الموضوعية الرئيسة التي تفسّر شعور الأمراني بالغربة والمعاناة ما يعانيه المسلمون من محن ورَزايا وأزمات واعتداء في مختلف أنحاء المعمورة، بحيث يتعرض أبناء الأمة الإسلامية إلى التعذيب والتقتيل مراراً، وفي أماكن عدة. ويتغاضى المنتظَم الدَّوْلي عن هذه الاعتداءات التي يُوقعها النصارى واليهود في حق المسلمين. كما يلتزم الإنسان العربي، في أحايين كثيرة ، موقف الصمت والتفرج، وكأنه لا يعْبأ بما يجري لإخوانه ولأمته. وهذا الأمر يزيد من إحساس الشاعر الإسلامي المعاصر بالغربة والمعاناة، ذلك بأنه إنسان مُرْهف الحِسّ، واعٍ بواقعه وواقع أمته. "والإنتاج الشعري الإسلامي المعاصر إنتاج يحكمه الوعي بشتى صوره، وكيف لإنتاج يصدر عن رؤية واضحة للوجود ألاّ يكون واعياً بذاته وبتجربة صاحبه ومقصديته؟".[52]

---

[49] - مثل: (عِزّ الدين إسماعيل: "الشعر العربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية" ، دار العودة، ط. 3، 1981، الفصل الأول من الباب الثالث – محمود الربيعي: الشاعر والمدينة، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع.3، مج.19، خريف 1988، من ص 129 إلى ص180– محمد عبده بدوي: الشاعر والمدينة في العصر الحديث، المجلة نفسها، من ص181 إلى ص226... إلخ).

[50] - الأمراني: القصائد السبع، ص71.

[51] - الأمراني: ثلاثية الغيب والشهادة، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1، 1989، ص ص 24-25.

[52] - عمر الملاحي: تجليات الوعي في القصيدة الإسلامية المعاصرة، ص37.

ويلاحَظ أن الأمة الإسلامية، في اللحظة الحضارية الآنية، تعيش حالةً من الألم الحادّ والأسى المتفاقم، ويخيِّم على أجوائها شبحُ الموت. وهذا يبعث على الغربة والمعاناة وسيادة نفَس الحزن لدى الشاعر الإسلامي المعاصر. يقول الأمراني:[53] (الرجز)

لنْ تقْدُري حُزْني

ولنْ تحْتملي بَعْضَ هُمُومي

بعْضَ ما يَضيقُ عنْهُ الصَّدْرُ مِنْ أشْجانِ

فعالَمي قامَ على بُرْكانِ

لا شَيْءَ غَيْرَ الموْتِ يا إنْسانْ

المَوْتُ في دِمَشْقَ

في بَيْروتَ

في عَمَّانْ

المَوْتُ في كابُولَ، في طَهْرانَ

المَوْتُ في بَغْداد

في وَجْدَةَ

في أسْيُوطَ

في تونُسَ

في وَهْرانْ

إن معجم الحزن طاغٍ على النص، نظراً لاستفحال الموت الذي صار يجثم على صدر الأمة الإسلامية جميعها في عصرنا هذا، عصرٍ تخلُّف المسلمين وتقهقُرهم في مختلِف المجالات. ونشير، هنا، إلى أن الحزن ظاهرة عامة وبارزة في الشعر العربي المعاصر بعامّة ؛ إذ تظهر في قصائد الشعراء المعاصرين بحِدَّة نتيجةَ تأثرهم بالشعر الغربي الذي صوَّر واقعَ الحضارة الغربية المادّية، ونقَم منها لتقييبها الجانبَ الروحي والخُلُقي، فساد فيه جوٌّ من الأحزان والأشجان، هذا من وجهة. ومن وجهة ثانية، نجد أن حضور تجربة المعاناة والحزن في شعرنا المعاصر يرتبط بالواقع العامّ الذي تعيشه الأمة الإسلامية حالياً.

وكثيراً ما يتألَّم الشاعر حسن الأمراني لواقع أمتنا المُزْري. فهذه الأمة لم تعُدِ الآن قويةً كما كانت من ذي قبلُ، بل دَبَّ إلى أوصالها الضعف والوَنى، وتجَرَّأ الأعداءُ على المِساس بحُرْمتها والمُعابثة بكيانها:[54] (الرمل)

أمَّةٌ نحْنُ تداعَتْ أمَمُ الأرْضِ علينا

كتداعي الأكَلَهْ . . .

وهذا قاسم الوزير، الشاعر اليَمَني الإسلامي المعاصر، يصف حال المسلمين في الوقت الحاضر ، ويَستغرب منه، لا سيما وأنّ القرآن ما يزال بينهم يُتلى:[55]

أ أذِلاَّءُ والكِتابُ بأيْدينا ويُعْلي رُؤوسَنا الإيمـانْ

أ جياعٌ ونحْنُ سُخِّرَتِ الأرْضُ لنا والبُحُورُ والأكْوانْ

---

[53] - الأمراني: الزمان الجديد، ص ص 129-130.

[54] - الأمراني: القصائد السبع، ص48.

[55] - محمد أبو بكر حميد: الصورة والتصور في شعر قاسم الوزير – دراسة تحليلية، مجلة "الأدب الإسلامي"، ع.22، مج.6، 1420هـ، ص54.

أو جَهْلٌ والعِلْمُ بعضُ عطايَانا وفينا تنزّلَ القُـرآنْ

أو ظُلْمٌ والعَدْلُ شَرْعٌ مِنَ اللهِ فكَيْفَ الجُحُودُ والنُّكْرانْ

لقد أفرد الشاعر حسن الأمراني ديواناً بأكمله للتعبير عن واقع المعاناة والغربة والمحنة الذي يعيشه مُسلمو البوسنة والهرسك بسبب عُطرَسة الصّربيّين مَصّاصي الدماء واعتداءاتهم. ويتعلق الأمر بديوان "جسر على نهر درينا" الذي يضم ثلاث عشرة قصيدةً في تصوير الاغتراب النفسي والحزن الدفين الذي يكتنف كيان الأمراني من جرّاء ما تتعرض إليه هذه الأقلية المُسلمة على أرض أوربا من تشريد وتنكيل وتقتيل... ففي الماضي، عاش المسلمون في البوسنة حياة عزٍّ وكرامة وسيادة مُدّةً من الزمن. أما الآن فإنهم يعيشون هناك حياة ضَنْكى، إذ يتعرّضون إلى مُختلِف أشكال التعذيب والتقتيل على يد الصربيين الطُّغاة الذين لايعرفون الرحمة ولا الهُوادة.

يقول الأمراني مُقارناً بين ماضي مسلمي البوسنة وحاضرهم، فيتحسّر على الماضي المُشرق، ويتألم من الحاضر المتردّي:[56] (الرمل التام)

يا قُـروناً خَمْـسَةً لألأءَةً.. كرَحيق الفَجْر ما بين القُرون

مَنْ طَوَى أعلامَكِ الخَضْراءِ؟ مَنْ نسرِجَ الأكْفانَ للحَقِّ الرَّزين؟

قـدْ غَدا نـهْرُ (دَرِينا)[57] ضامِناً ولَكَمْ كانَ يُروِّي الضامِنِيـن!

والعَصـافيرُ التي كـانتْ هنا زينةَ الرَّوْضِ وكَحْلَ النّاظِرين

ذبَحُوها.. هدَّمُـوا أعشاشَـها صادَرُوا ألْحانَها بينَ اللُّحُـون..

هتَـكوا سِترَ الصَّبايَا عَذَبوا كلَّ شيْخٍ.. قطَّعُوا كُلَّ وَتِين

سَرَقوا الأطْفالَ مِنْ أمَّـاتِهِمْ شَـرَّدوهُمْ.. يا لَظُلْمَ الظّالِمِين

قتَلُـوا كُلَّ أبيٍّ.. صَلَبُـوا يا سَرَايِيفُـو بَنِيكِ المُهْتَـدِين

يدور النص كلّه حول ثنائية (الماضي ≠ الحاضر). فالماضي كان زاهراً قويا، أما الحاضر فهو زمن الأفول والفتور. وهكذا نجد المسلمين البوسنيين يتعرضون إلى القتل والتغريب والتشريد، ويقع أبناؤهم فريسة الاغتصاب. وقد أشرك الأمراني بعضَ عناصر الطبيعة لتصوير هذه المعاناة، وتجسيد هذا التبدُّل من الماضي/ الإيجاب إلى الحاضر/ السَّلب، بحيث كان نهر (درينا) فيما مضى متدفقا بالماء، أما الآن فقد استحال ضامئاً شحيحاً... ويمكن أن نوضح الثنائية المذكورة آنفاً بالرسم الآتي:

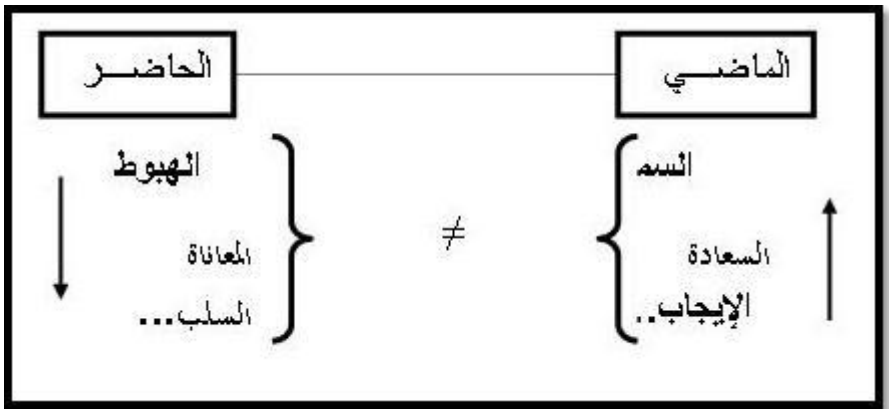

[56] - الأمراني: جسر على نهر درينا، ص 24-26.

[57] - نهر يوجد في جمهورية البوسنة والهرسك.

فقد مثلنا للماضي بسهم متّجهٍ نحو أعلى للتدليل على إشراقه وسُمُوّه، على حين وضعنا بإزاء الحاضر سهماً متجها نحو أسفل للتدليل على هبوطه وانحطاطه. وإذا كان الحاضر، عادةً، استمراراً للماضي، فإن الحاضر، في هذه الحال ، لا يبدو استمراراً للماضي، بل إن ثمة قطيعة بارزة بينهما، لذلك مثلنا لها بخط متقطع غير متّصل.

ولا يملك الأمراني حيال ما يقع للأقلية المسلمة في البوسنة من صنوف التعذيب والتقتيل إلا البكاء والتجلد:[58]

جَمْرةٌ مُطْفَأةٌ شمْسُ الضُحى وفُؤادُ الليْل بَكّاءُ حَزين

جُثَثِ الأرْضُ مِنَ الذّبْحِ، فمَنْ يَمْلِكُ الرُقيَةَ مِنْ مَسِّ الجُنون؟

يا دُموعَ الأرْضِ كُوني مَنْصَلاً يتلَظّى في صُدورِ المُعْتدين

يا سَراييفُو جراحِي جَمَّةٌ ونداءُ القَلْبِ مَكْتومُ الأنين

واصْطِباري فيكِ أضْحى خِنْجَراً كَلهيبٍ يَبْعَثُ الدّاءَ الدّفين

إنّها مَسْألةٌ واحِدةٌ: أنْ نكون الآنَ أو أنْ لا نكون!

يشير عَجُزُ البيت الأخير إلى قولة شهيرة للكاتب الإنجليزي وليام شكسبير (1564-1616م)، وهي: To be or not to be. That's the question، ومعناها بالعربية: أن نكون أو لا نكون. فهذا هو الإشكال. وهذا يؤكد مدى انفتاح الأمراني على الأدب الإنساني والعالمي، وعدم اقتصاره على التراث العربي والإسلامي. ويبدو من خلال النص أعلاه أن الأمراني يصوّر حزنه النفسي العميق ومعاناته المتزايدة، ويدعو إلى التغيير والانطلاق نحو أفق أحسن، وذلك من خلال الاقتباس أو التناصّ الوارد في البيت الأخير. يقول المرحوم نجيب الكيلاني: "إن الأدب الإسلامي ليس أدبَ نحيب وبكاء وتعبُّد للألم، لكنه تصوير لهذا الأسى النفسي، وتصوير يرتبط بمعاني المعاناة والتطهر والثورة على أسباب العذاب والمعاناة، نقطة تحريض وانطلاق إلى آفاق الانشراح والابتسام والسعادة".[59]

ويقول الأمراني في قصيدته "الصلب" التي نظَمَها لوصف المحنة القاتمة التي يعيشها مُسلم و البوسنة البؤآء:[60] (الرمل)

حاصَرُوني

أنا لا أدري لِمَاذا حاصَرُوني.

ولماذا اعتقلُوني

ولِماذا فوْق هذا الجِسرِ ظُلماً صَلَبُوني

أنا لا أدري لماذا اغْتصَبُوا أختي حيَالي

يا لَعَاري

يا لَذُلّي وانكِسَاري

ولِماذا عَذّبوا أمّي واقتادُوا أبي للاعتِقالِ

أنا لا أدري لماذا قيّدُونا بالسَّلاسِلِ.

---

[58] - الأمراني: جسر على نهر درينا، ص ص 26-27.

[59] - نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، ط 1987، ص73.

[60] - الأمراني: جسر على نهر درينا، ص ص 28-29.

فهؤلاء يحْيون حياة الذل والانكسار بسبب الحصار والاعتقال والقمع والتعذيب والقتل. وتتعرض بنات المسلمين هناك إلي الاغتصاب والاعتداء على يد "الذئاب الصربية" الشرِّرسة. ولا شك في أن الأمراني — الذي يُعاين باستمرارٍ ما يجري لأبناء الأمة الإسلامية في هذا الركن الأوربي (البوسنة) من ضروب التعذيب والقتل - يجد نفسه ، في كثير من الأح ايين، مدفوعاً إلي الاغتراب والشعور بالحزن والمعاناة.

وبالرُغم من كل المحَن والإحَن التي يُلاقيها هؤلاء المسلمون، فإنهم أصرّوا على الصمود والجهاد دفاعاً عن الوطن والعِرْض. ولكن الزمان لم يُنْصِفهم، إذ صاروا اليومَ غرباء أذلاّء:[61] (الرمل)

نحْنُ دافعْنا عَنِ الأرْض، عن العِرْضِ، وعَنْ مجْدِ الوَطنْ

فلِماذا اليَوْمَ صِرْنا غُرَباءْ؟

ولِماذا اليَوْمَ صِرْنا كالوَبَاءْ؟

ولا يميز الصربيون بين الذكر الأنثى، ولا بين الصغير والكبير. بل يشنون حربا ضَروساً لإبادة المسلمين إبادة جماعية. يقول الأمراني على لسان أمٍّ بوسنية ثكْلى تبكي صغيرَها الذي ذبحه الصربيون الغتاة بين يديها دون أن يرتكب ما يُوجب مثل هذا العقاب القاسي:[62] (الكامل)

وَلدِي الحَبيبْ

ماذا صَنَعْتَ وأنتَ ما أدْرَكْتَ بَعْدُ

سِنَّ الفِطامْ؟

ماذا أتَيْتَ مِنَ الذنوب؟

ذبَحُوكَ بينَ يَدَيَّ، شَقُّوا الجَيْبَ، واغْتَصَبوا دمي..

أبُنَيَّ ما صَنَع العُتاةْ؟

كانوا أضَرَّ مِنَ الذئابِ الجائِعات!

أبُنَيَّ ما صَنَعَتْ يداكْ؟

والسبب الأول والأخير في ذلك هو أنه مسلم يعتزّ بعقيدته وانتمائه:[63]

والذَّنْبُ؟ لا ذنْبٌ سِوى أنّ قِيلَ: مُسْلِمْ!

وقد يقول قائل: هل تدفع المحن المسلم البوسني إلي التخلي عن الدين الإسلامي والكف عن نشر دعوته، ما دام هذا الأمر هو السبب المباشر في كل ما يتعرض إليه هؤلاء المسلمون من أشكال المعاناة والتضييق؟ والجواب يأتينا على لسان هذا البوسني المسلم الأبيّ:[64]

أنا مُسْلِمٌ وحقيقَتي

أنْ أحْمِلَ النُورَ الذي جَلاَّهُ صَوْتُ الأنبياءِ إلي الوُجُودْ

ويعقِد الأمراني رباطاً بين مَصيري الأندلس وسراييفو نظراً لتشابُههما في المحن. فلم تعد الأندلس وحيدة، بل ظهر لها توأمٌ في عصرنا هذا مجسَّدٌ في البوسنة. فقد أصبحتا معاً في عِداد الذكريات المُرّة بعدما أفلَ نجمُ المسلمين في كلٍّ منهما:

---

61 - نفســه، ص29.

62 - نفـسه، ص45

63 - نفـسه، ص47.

64 - نفســه، ص50.

يا أرْضَ أنْدَلسٍ سَلاماً

ما عُدْتِ وَحْدَكِ جَمْرَةَ الذكْرَى، سَلاماً

هذي سَرايِيفُو تبادِلُكِ التَّحِيَّةَ والخِتاماَ...

يا أرْضَ أنْدلسٍ سَلاماَ...

ومن حُلكة الواقع تنبَجسُ شُعلة النور ؛ حيث لم يستسلم مسلمو البوسنة للوضع القاتم، بل نراهم يحملون راية الصمود ومشعل التفاؤل، لاعتقادهم الجازم بأنه مهما طال ليل الغربة والمعاناة والتوجُّس، فإنه سيأتي فجر الحرية والعِزّة لا مَحالة. يقول أبو القاسم الشابي (1909-1934م) في قصيدته "إرادة الحياة":[65] (المتقارب التام)

ولا بُدَّ للَّيْل أنْ يَنْجَلي ولا بُدَّ للقيْد أنْ يَنْكَسِرْ

إذاً، فالمحنة، مهما طال أمَدُها، ستعقبها السعادة. ولكن يجب أن يبادر الإنسان إلى رُكوب الأسباب، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فِضة كما يُقال. والتفاؤل أمْرٌ مطلوب في الإسلام. يقول محمد إقبال عروي وهو بصدد الحديث عن خَصِيصَة التفاؤل عند الأديب المسلم: "على المستوى الاجتماعي تشكل خاصية التفاؤل شحنة روحية للمسلمين تذرها عليهم آيات الله وأحاديث نبيِّه المصطفى..."

"إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً"[66]

"لنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ"[67]

والمتأمِّل لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم يُدرك هذه الحقيقة، حيث خَوّل التفاؤل له ولأصحابه فرصة التحدي والاستعلاء على جميع صنوف الأذى والألم..."[68]

يقول الأمراني على لسان أطفال سراييفو الذين ألحّوا على الجهاد والتحدي مُتسلّحين بالتفاؤل والأمل بغَدٍ مُشرق مهما طال ليلُ الحصار والأحزان:[69] (الرمل)

سَوْفَ نُعْلي رايَةَ الإسْلامِ في الأرْضِ وإنْ طالَ الحِصَارْ

وسَنَبْني للحَضارَهْ

هاهنا أَلْفَ مَنارَهْ

ومَنارَهْ...

يا سَراييفُو المَجيدَهْ

يا سَراييفُو الشَّهيدَهْ

أذِنَ اللهُ بأنْ تَرْفَعَ رَاياتُ الجِهادْ

نحْنُ أطْفالُكِ، حُرّاسُ العَقيدَهْ

لنْ يَطولَ الانْتِظارْ!

---

[65] - نفســه، ص52.

[66] - أبو القاسم الشابي: الأعــمال الكاملة، الدار التونسية للنشر، ط 1984، 236/1.

[67] - سورة الشرح، الآيتان 5-6.

[68] - رواه ابنُ جرير.

[69] - محمد إقبال عروي: جمالية الأدب الإسلامي، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، ط.1، 1986، ص57.

[70] - الأمراني: جسر على نهر درينا، ص ص59-60.

لن يَطُول الانتظارْ!

ومن بلاد الشام تلوح مِحنٌ أخرى تركت في نفسية الأمراني أثراً واضحاً، فدفعت به إلي مَضايقِ الغربة وإلي الإحساس بالألم والمعاناة. يقول:[71] (المتدارك)

آهٍ مَروانْ[72] إنّي تغرَّبْتُ يومَ عَرَفْتُكَ.

كانتْ جراحُكَ عُضْنَهْ

وكنتَ كعُصفورِ حَقلٍ حَزينٍ يُفارِقُ أرْضَهْ

فمَنْ للمُهاجِرِ بَعْضُهُ يَنْدُبُ بَعْضَهْ؟

من خلال النماذج المستعرضة، تبيَّن لنا أن الأمراني يستحوذ عليه الشعور بالاغتراب والمعاناة في كثير من الأحيان نظراً لتفاقم جُروح الأمة الإسلامية، وتوالي محنها في الوقت الحاضر. وقد وقفنا عند معاناة المسلمين في البوسنة والشام فقط لضيق المجال ، وإلا فإن الأمراني نظم شعراً كثيراً في وصف معاناة المسلمين في فِلسطين وغيرها من مناطق العالم الإسلامي.

وكثيراً ما تأسَّف الأمراني على ما آل إليه المسلمون في العصر الراهن من تخلف وذِلة، وأعلن -بالمقابل- تبرُّمه من هذا الواقع وثورته عليه. واختار، في المآل، سبيلَ التحدي والصلاة والصبر حتى تحقُّق النصر المنشود. يقول:[73] (المتقارب)

ترَجَّلَ كُلُّ الفَوارِسِ

واستَمْرَأَ النّاسُ عَيْشَ الحُفَرْ

ولكنَّني سأصَلّي

ولَسَوْفَ أسابِقُ ظِلّي

وإنْ طالَ هذا الطَّريقُ

وأنضَى جَوادِي

وخالَطَ زادِي

دَمي وغُبار السَّفَرْ

فإنْ قيلَ: أيّامٌ تمْضي

ودَرْبُكَ هذا فلاةْ

أقولُ: سأتّخِذ الصَّبْرَ لي صاحِباً

والصَّلاةْ

إلي أنْ يُطالِعَني المَوْعِدُ المُنْتَظَرْ

بناءً على ما قيل بخُصوص تجربة الاغتراب لدى شاعرنا الأمراني، يمكن أن نسجل الملاحظات والاستنتاجات الآتية:

- يشغَل موضوع الغربة والمعاناة حيّزاً مهماً في شعر حسن الأمراني، لأن الرجل عانى -فعلاً- الاغتراب إنْ على المستوى الفردي أو الجماعي، وما يزال يعانيه، وسيظل كذلك ما دامت أسبابُه قائمة. يقول:[74] (الرجز)

لكنَّني ما زِلْتُ مُبْعَداً كأنّ رِحلَتي

---

[71] - الأمراني: القصائد السبع، ص68.

[72] - هو مروان حديد؛ أحدُ شهداء "حَـمَاة" السورية.

[73] - الأمراني: أشجان النيل الأزرق، مطبعة الأحمدية للنشر، البيضاء، ط.1، 1998، بدون صفحة.

[74] - الأمراني: القصائد السبع، ص64.

ليسَ لها نهايَة

ومع استمرار الغربة واشتداد سَوْرَتها، يلجأ الأمراني إلي التسلُّح بما يلزم لمقاومتها. يقول:[75] (الكامل)

لكنَّ لي في كُلِّ عامٍ رِحلَةً وتشرُّداً

وكأنَّني جَوَّابُ أوْديَةٍ وآفاقِ

ولي في كُلِّ عامٍ غُرْبَةٌ،

مُتأبِّطاً سَيْفي

ودَمي على كَفّي!!

• تحضر ثيمة الحزن بصورة لافتة للانتباه في قصيد الأمراني. ولا عجب في ذلك، فواقع وطنه وأمته قاتم ومتدهور، يبعث على الشجن والتغرُّب، ولا يبعث على الانشراح والفرح. وبجانب هذه الموضوع ة، يبرز معجم الموت في عديدٍ من قصائد الأمراني. والموت عنده ليس فناء ونهاية، بل هو نماء وبداية، وذلك انسجاماً مع التصور الإسلامي السليم للموت. يقول:[76] (الكامل)

وفي المَوْت الولادَة

• لقد كان من الطبيعي أن تؤثر الغربة على بنية القصيدة، ذلك لأنها لم تكن حادثاً عارضاً، وإنما كانت حادثاً مُوجعاً في كثير من الأحيان.[77] ومن هذا المُنطلَق، فإننا نلمس في الأشعار المقدَّمة في هذا ال بحث حضور هذا التأثير. فموضوع الغربة والمعاناة ترك بصمات واضحة في الجانب الشكلي/ الفني للقصيدة الأمرانية، ويظهر ذلك، بالأساس، في الأوزان الشعرية المُختارة، وطبيعة اللغة المتوسَّل بها في التعبير. والملاحظ أن الأمراني يُكثر من استعمال البُحور القادرة على استيعاب المشاعر الرقيقة كالرَّمَل والكامل، ويَستخدم الكَسْر بصورة بارزة، لأنه الأنسب لتصوير حال الانكسار والمعاناة والغربة، كما أنه يستعمل لغة واضحة، جميلة وقوية ؛ لتحقيق التواصُل مع القارئ، وإبْلاغِه رسالةَ النّص... إلخ.

الفصل الثاني: الاغترابُ في شعر محمد علي الرباوي.

من الموضوعات البارزة في الشعر الإسلامي المعاصر موضوعة الاغتراب داخل الذات/ الوطن. ولا غرابة في هذا إذ علمْنا أن بواعث هذا الاغتراب قد استفحلت وتشعّبت في اللحظة الحضارية الآنية خاصة. والذي يتصفح دواوين محمد علي الرباوي ومجموعاته الشعرية وقصائده المنشورة في عديدٍ من الصحف الوطنية والعربية يلمس —من كثبٍ- مدى حضور ثيمة الغربة والمعاناة في شعره. وستسعى هذه الورقات إلي رصْد تجليات تلك الغربة وبواعثها وما يرتبط بذلك بكثير من الإيجاز. وقبل ذلك يحسُن بنا الإشارة إلي أن الرباوي شاعر مغربي مرموق، ولد عام 1949م بمدينة تِنجْداد (إقليم الرش يدية). و قد تولي تدريس مادة "الشعر المعاصر" ، ومواد دراسية أخرى، في كلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة محمد الأول (وجدة)، ردحاً غير يسير من الزمن إلي أن غادر ذلك المنصب، قبل سنوات قليلة، مستفيداً من حملة كانت قد أطلقتها وزارة التربية والتعليم بالمغرب، أسمتها "المغادرة الطوعية". وأشرَف، طَوال عمله بالمؤسسة المذكورة، على عدد من الأبحاث والرسائل والأطروحات الجامعية. بدأ نظم الشعر في السبعين يلت كزميله حسن الأمراني، وصدرت له عدة دواوين، بعضها مشترك والآخر منفرد ؛ من مثل: الكهف والظل، البيعة المشتعلة، الولد المر، عصافير الصباح... وله قصائد أخرى منشورة في صحف وطنية وعربية عدة. وقد كتب مقالات في النقد والأدب. وهو عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وأيضاً عضو اتحاد كتاب المغرب منذ مدة.

---

[75] - الأمراني: الزمان الجديد، ص170.

[76] - الأمراني: القصائد السبع، ص26.

[77] - عبده بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، عالم الفكر، ع.1، مج.15، ربيع 1984، ص34.

لقد تعرض وطن الرباوي (المغرب) مُذ صدمة الحداثة إلي حملات التغريب النتنة، فأصبح كل شيء فيه يبعث على الدهشة والتألم والغربة. إذ غزا الغرب/ الروم كلّ مناحي حياة المغاربة — وكذا المسلمين - بدءاً من أبسطها إلي أشدها تعقيداً. يقول الرباوي: [78] (المتدارك)

هوَ ذا الجُمْرُكُ يَستوْقِفُ هيْكَلَكَ العَضْميّ.

- (ما اسمُكْ؟

مِنْ أيّ بلادٍ أنْت؟)

توقِظُكَ الدَّهشَةُ

تصحُو:

فإذا الجُمْرُكُ رُومٌ!

الشُّرْطَةُ في الشّارِعِ رُومٌ!

الشّاشَةُ في بَيْتِكَ رُومٌ!

زَوْجُكَ، أبْناؤكَ... رُومٌ!

رُومٌ!

رُومٌ!

تشْعُرُ أنّ عَلَيْكَ لِبَاسَ الخَوْفِ

عَلَيْكَ لِبَاسَ الدَّهشَةِ.

وهكذا تشبّه بالروم الجمرك، الإعلام، الزوج، ... وقد تفاقم الأمرُ حتى استحالَ ظاهرة عامة. وهذه الصورة الموبوءة الانهزامية لا تقتصر على بلد الشاعر، بل تمتد لتبسُط ظلالها على رُبوع الأمة الإسلامية رُمّتها لما تعرضت إليه من غزو حضاري غربي منذ أفول نجمها. وكان من الطبيعي أن يتسبب هذا الجو القاتم في إفراز حالات التغرُّب والدهشة والتوجُّس والتألم المرير، لا سيما عند شاعر مُرْهف الحس، سليم التصوُّر كالرباوي.

وتصْرف هذه الآلام الإنسان إلي الالتزام بقيم الحق، والثبات على المبادئ الأصيلة، والعمل على تكسير صرْح رموز الطغيان والشر. فهذه الغربة موقوتة زائلة —لا محالة- سواء طال أمدها أم قصُر، وعلى الإنسان أن يستغل دنياه أحسن استغلال استعداداً للغربة الكبرى المتمثلة ب"يوم القيامة". يقول: [79]

ولَكِنْ

تثبَّتْ

تعْلَمُ أنّ السّاعَةَ غُرْبَتُكَ الصُّغْرَى

أوْدَعَتْ لَوافِحَها في جَوْفِ البَحْرِ

وأنكَ تدْخُلُ غابَةَ غُرْبَتِكَ الكُبْرَى

---

[78] - محمد علي الرباوي: الأعشاب البرية، من منشورات مجلة "المشكاة"، وجدة، ط.1، 1985، ص ص 36-37.

[79] - المصدر نفـــــسه، ص37.

هلْ أعَدَدْتَ لَها زاداً

فِي حَجْمِ فيَافِيها؟

ويقول في القصيدة نفسها منوّها ومبشراً بالخير والنور:[80]

عَظيمٌ أنْتَ وأنْتَ تعِدُّ

الزّادَ لغرْبَتِكَ الكُبْرى

هل بُشّرْتَ بأنّ الفَجْرَ على الأبْوابِ؟!

وحين تنغلق كل الأبواب في وجه الشاعر، وينحصر في أضيق زاوية من زوايا الحياة، ويصطدم بجدار اليأس القاطع، وينصهر في بُوتقة العذاب النفسي والجسدي، فإنه حينذاك لا يشعر بالاغتراب الوجودي الذي هو انفصام حادّ بين مكوّنات الإنسان الداخلية، ما دام مُستبيناً لمصيره، مُوائماً بين عقله وقلبه، مُناغماً بين روحه وجسده، مُستنقذاً ذاته من الأوهام والظنون، متحرراً من شهوات العمر اللامتناهية التي تنهك دم الإنسان وتؤرّ مشاعره ... بل إنه يفرّ بكيانه إلى حومة الله تعالى ولطفه طالباً العون والسندَ. يقول الرباوي:[81] (المتدارك)

هل أقدِرُ أنْ أعْبُرَ هذي الأدْغالَ الفَتّاكَهْ

إنْ عَنّي أنْتَ تخلّيْتَ؟

لِماذا يا مَوْلايَ خَلقتُ هلُوعاً

إنْ مَسَّ جنانِي المَحْلُ جَزُوعاً

أوْ مَسَّ جنانِي الوَبْلُ جَزُوعاً

أدْرِكْنِي

مِنْ وَسْواسِي الخَنّاس، وعلّمْنِي

أنْ أمْلأ دُنْيايَ بحَمْدِكْ.

وقد تغرّب الرباوي بين أحضان وطنه، إذ يذكر أنه لم يقطعْ بَرّا ولا بحرا إلى خارج مغربه، ومع ذلك فقد اغترب في مدينة (فاس) العريقة التي لا تفصلها سوى أميال معدودات عن مدينته الأثيرة (وجدة) التي طالما تغنى بها في شعره:[82] (المتدارك)

أنا لمْ أقْطَعْ بَحْراً،

لمْ أرْكَبْ بَرّاً،

لكِنّي في فاسَ تغرّبْتُ

وفي إسْفَلْتِ شَوارِعِها

كالكَأسِ تحَطّمْتُ

وداسَتْ أرْجُلُ كُلِّ الرِّجْلِ زُجاجَةَ ذاتِي

هلْ أحَدٌ يا فاسُ بَكى وتوَجَّعَ مِنْ ألَمٍ؟

---

[80] - نفـــــــسه، ص40..

[81] - الرباوي: أول الغـــيث، من منشورات المشكاة، ط.1، 1995، ص42..

[82] - الرباوي: الأعـــــشاب البرية، ص ص11- 12.

ضُمّني

حتى أشعُرَ أنّ ضُلُوعِي

تتكَسَّرُ ضِلْعاً ضِلْعاً،

إنّي فِي عَيْنَيْكِ تغرَّبْتُ، تساءَلْتُ مِراراً..

ماذا يَفْصِلُ وَجْدَةَ عَنْ

رَبَوَاتِكِ يا فاسُ المُعَلّقَةَ المَفْتُوحَةْ؟

وفضلاً عن معاناة الرباوي وغربته داخل فضاء فاس، نلحظه يكشف عن اغترابه المُؤلم وعذابه القاسي داخل وطنه المسروق الذي يقابل إحسانه بالإساءة. ورُغم ذلك فهذا الوطن عزيزٌ لدى الشاعر لا يستطيع أن يرحل عنه أو ينساه:[83] (المتدارك)

(...) يا جَسَدِي

أنا ما زِلْتُ على كتِفِي أحْمِلُ أحْجاراً

عندَ طُلُوعِ الغَضَبِ الجَبّار على بَلَدِي

المَسْروقِ جِهاراً. بَلَدِي أعْشَبَ وادِيهِ وَنَمَّ

به الزَّهَرُ الفاتِنْ، لكنْ أسْألهُ خُبْزاً

يُعْطِينِي حَجَراً. بَلَدِي هذا المَسْروقْ وإنْ

جَارَ عَلَيَّ عَزِيزْ، والأهْلُ وإنْ قَطَعُوا

حَبْلَ الوَصَالِ عَلَيَّ كِرامْ.

إن الرباوي عاش التيه والضياع طَوال عمره، كما يعترف بذلك الشاعر نفسُه في قصيدته "ورقة من ملف الاعتراف"، حيث قال:[84] (الرَّمَل التام)

عِشْتُ عُمْرِي تائِهاً وَسْطَ الفَلاَةِ

تحْرَقُ الأيّامُ صَفْصَافَةَ ذاتِي،

وتحُطُّ الرَّمْلَ فَوْقِي، وأنا

عَبَثاً أبْحَثُ عَنّي فِي حَيَاتِي.

وقد دفعت كثرة معايَشة الشاعر لتجربة التيه إلى الضَّجَر والتبَرُّم منها:[85] (الرمل)

قدْ سَئِمْتُ

عالَمَ التيهِ المُبَعْثَرْ،

وعَلِمْتُ

أنني كُنْتُ مُغَبَّرْ،

فصَحَوْتُ،

ولَمَسْتُ

---

[83] - الرباوي: الأحجار الفــوّارة، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1، 1991، ص15.

[84] - الرباوي: أطباق جهــنم، المطبعة المركزية، ط.1، 1988، ص35.

[85] - نفـــــسه، ص41.

كُنْهَ رَبّي

في سَنا الزّهر المُعَطّرْ

ويكتوي الرباوي بلهيب نار الوحدة والتغرب داخل منفى الذات/ الوطن منذ زمن بعيد. ويصل به الأمر إلى أن يتمنى صُنع ذاتٍ أخرى غير ذاته الأصلية ليحل فيها فراراً من قسْوة واقعه الذي التهمَته نيرانُ الغضب والبكاء. وهذا مجرد تمنٍّ، والتمني يستحيل تحققه على أرض الواقع كما في عُرْف علماء البلاغة. يقول الشاعر:[86] (المتدارك)

ها أصْبَحْتُ وَحيداً في مَنْفى خَوْفي الرّابضِ

في عَيْني مُنْذ سِنينْ

وغَلائِلُهُ تورقُ كُلَّ دَقيقة،

وأنا أتحَوَّلُ ناراً غَضْبَى، ناراً تحْرقُ ذاتي

آهٍ لوْ أني خارجَ ذاتي

لوْ أني أمْلِكُ أنْ أصْنَعَ لي ذاتاً أخرى

تمْشي لا ترْسُم ظِلاً فوْق شَفاهِ الأرْضِ

حينَ تصادَمْتُ مَعَ الرّيح ضَحِكْتُ كَثيراً

حينَ تعَرّى جَسَدي وتكَلّم جَهْراً

لُغَةَ الطّين بكَيْتُ كَثيراً

وفهمت خبايا الذات كثيرا.

وفي غمرة الوحدة والوحشة، يتملك شعور الخوف الرباوي، وتداهمه فرسان العشق حاملةً رسالة التفاؤل والأمل. يقول الرباوي:[87] (المتقارب التام)

تمَلّكَني الخَوْفُ في وَحْدَتي

فداهمَني العِشْقُ سِرّاً وَجَهْراَ

أبَعْدَ اليَباب حَيَاةٌ تهُزُّ

رِمالي وتشْعِلُ في الصّدْر جَمْراَ

يدرك الرباوي أن غربته القاسية وتيهَه الطويل وعذاباته المتتالية مسبَّباتٌ لأسباب خارجية عبّر عنها ب"الطواغيت". وهذه الطواغيت هي التي حملته على التغرُّب عن أهله وأقاربه بدون حق. وعليه، فإنها آيلة —لا محالة- للفناء والزوال مهما تعالت وأمْعَنت في التغريب القسْري للأبرياء، لتترك المجال للشاعر التواق إلى العيش الأخضر والنبيل. يقول الشاعر في قصيدته "هذا الجسد" التي نظّمَها بوجدة عام 1980م:[88] (المتدارك)

جَسَدي مَرْتعٌ لصَهيل الصّدى، هجَرَتْ رَبْعَهُ القَطَواتُ،

وأعْطَتْ لِهُذي الطّحالبِ حقّ التسَكّع في كَهْفَ ذاتي، لقدْ بَشّرَتني

---

[86] - الرباوي: الرمانة الحجـــــرية، المطبعة المركزية، ط.1، 1988، ص50.

[87] - مجموعة من الشعراء: ديوان الانتــفاضة، من منشورات "المشكاة"، ع. 35/34، 2001، ص41.

[88] - الرباوي: الرمانة الحجرية. ص14.

اللّيالي بهذا العَذاب العَظيم، فخُضْتُ مَتالِفَهُ زَمَناً، ذُقتُ فيهِ

لَذيذَ التغرُّب، يا صاحِبي كَمْ تغرَّبْتُ بَينَ جَزائرِ دُنْيايَ دَهراً

بَطيءَ الفُصولِ، وَتهْتُ حَياتي حَتى استَضأتُ بنارِ التَّتار،

وذاتي مِنها انْسَحَبْتُ، وأخْرَجَت أثقالَها للتَّنائِفِ، يا صاحِبي

أنا رافَقَني اليُتْمُ، رافَقتُهُ زَمَناً . . . آهٍ يا لَيْتَ ناقتكَ اليَوْمَ تبْرَكُ

في مَرْبَدي، هيَ قدْ خَرَجَتْ مِن ضِفافِ الخَليجِ مُحَمَّلَةً بسِلالِ

الصَّباحِ، هيَ الآنَ مأمُورَةٌ أنْ تدُكَّ جِبَاهَ الطَّواغِيتِ. . . هذي

الجِبَاهُ التي غرَّبَتْني عَنِ الأهلِ سَوْفَ تزُولُ، تزُولُ، تزُولْ

وَيُزْهِرُ هذا الجَسَدْ.

لقد كتب الرباوي هذا النص على طريقةٍ أشبه ما تكون بالنثر، اعتمد فيها ما يسمى "التدوير العروضي". والملاحَظ أن هذه الظاهرة قد تفشَّت في الشعر العربي المعاصر، في السنين الأخيرة بخاصة، وإن كان قد أنكرها غيرُ واحد من الدارسين والناقدين. والسؤال المطروح، هاهنا، هو: لماذا اعتمد الرباوي تقنية التدوير العروضي في نصه هذا وفي نصوص أخرى؟

لاشك في أن ثمة دوافع تقبع وراء ركوب الرباوي هذه التقنية في نظْم بعض قصيده. ومن الملموس أن الرجل يركن إلى هذه الطريقة بصورة لافتة للانتباه في شعره الغنائي/ الذاتي، ويستعمل فيه —بكثرة- وزن المتدارك/ الخَبَب الذي يصلح إلى حدٍّ بعيد للتعبير عن المشاعر والعواطف وكل ما له صلة بالنفس الشاعرة. يقول الرباوي في مقدمة مجموعته الشعرية "الرمانة الحجرية": "إن مَن يقرأ قصائد هذه المجموعة وغيرها مما أصدرته أو نشرته في المجلات والصحف الوطنية والعربية، سيُلاحظ أن القصائد التي يغلب عليها الطابع الذاتي، أي تلك التي أكتبها استجابة لضغط داخلي، تتخذ شكلا مدوّراً، وغالباً ما يكون الخَبَب هو النَّسَق النَّغمي المناسب لهذا التدوير. أما القصائد التي يكون الموضوع الخارجي هو الغالب عليها فإن أبياتها تتخذ شكلا مألوفاً قد تطول وقد تقصر"[89].

إن الحزن والأسى من النبرات السائدة في شعر الرباوي، ذلك بأن "الشعر معاناة" كما قال الرباوي نفسه في مقدمة ديوانه "أطباق جهنم"، أي إنه تعبير عما يختلج في نفس الشاعر من أحزان ومشاعر أسيانة. يقول الرباوي في قصيدةٍ عنوانها "باتنة":[90] (المتقارب)

لِبَاتنةَ أنْ تسكُنَ القلْبَ جَهْراً

لَها أنْ تصافحَ وَجْدَةَ إنْ لَقِيَتْها ترَفْرِفُ

بيْنَ شَوارِعِهِ المُكْفَهِرَّةِ ذاتَ مَساءٍ. لَها أنْ تمارسَ

حُزْني الذي خبَّأته السِّنُونْ بصَدْري، وأعْطَتْهُ حَقَّ

التسَكُّعِ في قطَراتَ دَمي.

وتتخذ هذه النبرة بُعدا أكثر قساوة وفظاظة في وطن الشاعر الذي يقسو على أبنائه، ويزرع في عيونهم بذور الحزن، بل إنه ليتعدّى ذلك حين يعْمِد إلى "تصدير" أبنائه وتغريبهم إلى بلاد النصارى التي تستفيد من قُواهم العضلية والذهنية مقابلَ أجور زهيدة: (المتدارك)

---

[89] - الرباوي: الرمانة الحجـــرية، ص ص6-7.

[90] - العلم الثقافي (الملحق الثقافي لجريدة "العلم"؛ اللسان الناطق باسم "حزب الاستقلال" بالمغرب)، س. 32، السبت 2001/12/15، ص5.

يا عَبْدَ الرَّحْمانَ

قاسٍ هذا البَلدُ الأقْصَى

يَزْرَعُ في أعْيُنِنا

أعْشابَ الحُزْنِ القاتِلِ

ويُصَدِّرُنا عَضَلاتٍ تخْضَرُّ بها

أشْجارُ بلادِ الرُّومْ

ورُغم شبَح هذه القسوة الشديدة التي تطارد الإنسان في بلده، فإن المرء حينما يغترب عن وطنه وأهله سَرْعان ما يتفقد أرضه وذويه، ولا يهنأ له بالٌ في ديار الغربة والمهجر، بل يحِنُ مراراً إلي رياح بلده وجمال طبيعته. يقول الرباوي:[91]

قاسٍ هذا البَلدُ الأقْصَى

قاسٍ.. قاسٍ.. لكِنْ

حينَ نذُقُ الأوْتادَ هنالِكَ في جِزْرٍ

لا تستَنشِقُ ريحَ الأطْلَسِ، والرِّيفِ الشامِخِ،

حينَ نحُطُّ على أغْصانِ

لا نُبْصِرُ مِنها أقْمارَ الأحْبابِ،

ولا نسْمَعُ مِنها شَغَبَ الأوْلادِ،

تصْبِحُ دُرّاً حَصْباءَ بلادِي

وشَمُولاً أنْفاسُ رياحِ بلادي

وهكذا يشتاق الإنسان المغترب إلي تلك الأحزان التي طالما تبرَّم منها أيام كان في وطنه:[92]

يا عبْدَ الرَّحْمانِ

ما أسْعَدَكَ الآنَ!

إذ تشْتاقُ إلي هذي الأحْزانِ.

إن الإنسان لا يعيش حياة الكرامة والسعادة إلا بين أحضان وطنه الذي نشأ وترعرع فيه. ومهما حاول المرء الفرار من وطنه ونسيانه، فإنه لا يقدر، لأن الأوطان جواذب. ومن الواضح أن الرباوي قد عاش تجربة الغربة والمعاناة داخل وطنه الحبيب وتألم من وقعها، بيد أنه آثرَ — رغم ذلك كله - البقاءَ في وطنه والعيش في كنفه صامداً ثابتاً كثبوت النخل في الفَلاة، والملح في البحر، والحب في قلب العاشق الولهان. يقول:[93] (المتدارك)

- أهجُرْ

- لاَ

---

[91] - الرباوي: الأحجار الفوارة، ص87. والقصيدة منشورة أيضاً في صحيفة "أوَارْ"، ع.1، نونبر 2001، ص12.

[92] - الرباوي: الأحجار الفوارة، ص88.

[93] - نفـــسه، ص: 89.

[94] - الرباوي: الأعشـــاب البـــرية، ص40.

لا هِجرَةَ بَعد الفَتح المَيمُون

عظيمٌ أنتَ وأنتَ هنا تثبُتُ في أرضِكْ

كالنَّخل الواقِفِ في الصَّحراءِ

وكَالمِلح السَّارح في البَحرِ

وكالحُبِّ النابضِ في قلبِ المجنُون؟

ويعبّر الرباوي في مواضعَ كثيرةٍ من دواوينه ومجموعاته الشعرية عن وطنيته الصادقة، وحُبه العميق لوطنه الجميل، وتعلقه الشديد بأهدابه، ذلك بأنه يدرك تمام الإدراك أن "لا حياة في ظل الاغتراب، ولا وجود بعيدا عن الانتماء والاندماج في الجماعة" [95]. يقول: [96] (المتدارك)

هوَ ذا الوَطَنُ الحُلمُ أمَامَكَ

أجْهَشْتَ لهُ حينَ رأيْتَ سَنابلَهُ الخُضرَ

وهلَّلَ للرَّحمَن وكَبَّرْ

حينَ اشتعَلَتْ عيناكَ عَصافِيراَ

***

هو ذا الوَطنُ الحُلمُ أمامكَ

حُلوٌ فمُ هذا المَحبوب السَّاحِرْ

خدّاهُ كَفِلْقَةِ رُمّانه

عَيْناهُ خَميلةُ طيبٍ

تقطُرُ شَهْداً شَفَتاه.

يبدو أن الشاعر يخاطب شخصاً آخر، ولكنه في الحقيقة يتحدث عن ذاته التي أهلكها التغرب الذاتي، فحلمت بوطن جميل تجد فيه راحتها وطمأنينتها. ومن الملاحظات البارزة التي يمكن أن نسجلها ونحن نستعرض نموذجاتٍ من شعر الرباوي كونه يكثر من استعمال بحر المتدارك (أو الخبب) باعتباره نسقا نغميا وقالبا موسيقيا يصلح لاستيعاب المشاعر الحزينة والأحاسيس المتوترة.

أشرنا في مكان سابق إلى أن الرباوي من أبرز الشعراء الذين تحدثوا عن تجربة الغربة والمعاناة داخل فضاء المدينة. وهو أمر يلمَسُه كل من احتكّ بشعره ودرَسه. وقد رأينا آنفاً كيف أن الشاعر قد اغترب في مدينة فاس داخل مغربه دون أن يقطع برا ولا بحرا إلى خارجه! وهذا -لعَمْرُك- من أغرب أشكال الاغتراب، وأكثرها إيلاماً.

يحضر الفضاء المكاني [97] بكثافةٍ في أشعار الرباوي. ففي ديوانه "أطباق جهنم" مثلا نجد حضورا قوياً لفضاء "وجدة"، ولا سيما في القسم الثاني منه المُعَنوَن بـ"حديقة العطش" . . . ومن المدن التي تحدث عنها الرباوي في شعره "الدار البيضاء" التي تجنح صورتها نحو "باريس". يقول: [98] (الرمل)

---

[95] - فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، م.س، ص201.

[96] - الرباوي: الأعشاب البرية، ص ص34-35.

[97] - أقصد به، هنا، المُدن المغربية خاصة.

[98] - الرباوي: أول الغيث، ص16.

أبَداً ما أنْتِ بَيْضاءَ.. ولكنْكِ بَيْداءُ تغطّي غابَةٌ مِنْ شَجَرِ

الإسْمَنْتِ مِرآتكِ. وَجْهانِ كَبيران لَكِ السّاعَةَ. وَجْهٌ أبْيَضٌ

مِثلَ بَياضِ الطَّيْرِ حينَ الحُبُّ يَرْميهِ بحبّاتٍ مِنَ الصُّبْحِ،

وَوَجْهٌ تحْرَقُ الشَّمْسُ خَلاياهُ. لِباريسَ نَشيدٌ يَنْتَشي حينَ

عَلى إيقاعِهِ ترْقصُ أغْصانُكِ رَقْصاً.

ويميّز الرباوي بين مدينة وأخرى، إذ يفرق بين الدار البيضاء ومراكش على أساس أن الأولى قد اقتفت أثر الغرب الكافر المتحضر في كل مجالي الحياة، على حين ظلت الثانية محافظة على صورتها المغربية وهويتها الأصلية. يقول:[99] (الرمل)

قدْ عَبَرْتِ البحْرَ ما فكّرْتِ في مُرّاكُشَ الحَمْراءِ عامَ اكْتسَحَ

الجُوعُ جُموعَ النَّخْلِ. تساقطْتِ جَذْلى كالفَراشاتِ على

عاصِفَةِ الضَّوْءِ الذي قالَ احْرَقِي الفُلْكَ فكانَ الفُلْكُ في

مُسْتَنْقَعٍ هشيماً.

ويقول مصوّراً أجواء القلق والرُّعب والغربة في المدينة:[100] (المتدارك)

يا رَبَاوِيْ..

يا السّاكِنْ في غاباتِ القلقِ الوَهاجْ..

ما لكَ تسْرِعُ في خَطْوكَ

لَكَأنّ وَراءَكَ يَعْوي ليْلٌ داجْ

رَدَّ عليّ بصَوْتٍ مُهْتاجْ:

"اَلوقتُ قصيرْ،

والدُّنْيا صَعْبَهْ،

والبُسْتانُ بَعيدٌ بُعْدي عَنّي،

وأنا ما زِلْتُ بهَذي الأبْراجْ

في جَوْفِ الجَمْرِ تبارِزُ نفْسي نفْسي

وتهَدِّدُها، في جوْفِ الجَمْرِ

بما في هذا الرُّعْبِ الصّاخِبِ

مِنْ أمْواجْ".

وهكذا، يتبدّى لنا أن إيقاع السرعة والإحساس بعامل الزمن من أبرز ميزات حياة المدينة. يقول عِز الدين إسماعيل: "من أبرز ما يميز المدينة الإحساس فيها بعامل الزمن، وانعكاس هذا العامل على الحياة نفسها وعلى علاقات الناس بعضهم ببعض".[101]

---

[99] - نفســــــــه.

[100] - العلم الثقافي، س.32، 2002/01/12، ص7.

[101] - عز الدين إسماعيل: "الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية"، دار العودة، بيروت، ط. 3، 1981، ص331.

وتجدُر الإشارة إلي أن تجربة الغربة والمعاناة في عالم المدينة تتسم بالصدق والأصالة عند الشاعر الإسلامي المعاصر بعامة. وقد تبيّن لنا -فعلاً- من خلال معاينة هذه التجربة في شعر الرباوي مدى صدقها، فالرجل عانى مرارة التغرب والتشرد في فضاء المدينة التي فقدت كثيرا من مقوّماتها الحضارية لتنساق وراء حضارة الغرب الوافدة، فعبَّر عن ذلك في شعره أصدق تعبير. وهذا عكس ما نجده عند شعراء الحداثة الذين يتحدثون عن هذه التجربة، ولكن بروح مِلؤها الزيف والنُبوّ عن الأصالة.

والواقع أن حال أمتنا في الوقت الحاضر لا يبعث على الراحة والغبطة. ففي أجزاء كثيرة منها تسيل دماء، وتنتهك حرمات، وتضطهد أرواح . . . وقد كان لامناص من أن يترك هذا الوضع المُزري الذي يزداد مع توالي الأيام قتامة أثراً واضحا في نفسية الشاعر الإسلامي المعاصر المعروف برهافة حسه ورقة شعوره. وهكذا ألفَينا الرباوي في كثير من قصيده يستحضر واقع أمتنا المأساوي، ويتحسّر على ماضي المسلمين، ويتبرَّم من الحال التي آلوا إليها، وهي حال تدفع إلي الاغتراب والحزن والتألم المُرّ.

إن الرباوي الذي يحمل في قرارة فؤاده همّ الأمة يُعاين من كثب ما يجري لإخوانه في فلسطين المحتلة من صنوف التقتيل والتشريد على يد بني صهيون الذين لم يحترموا ذِمّة ولا إلاً، فراحوا يعبثون بمقدّسات أمتنا في غياب الدعم العربي والإسلامي الفعلي للقضية الفلسطينية الشائكة. وكل هذا يُعذب الرباوي، ويدفع به إلي خلجان المعاناة والتغرب والجنون. يقول:[102] (المتقارب التام)

أرى الشعبَ يا قلبِ يُدفنُ حيّاً
إذا صاحَ: إنّي أجُوعُ وأعرَى
ويَبقى العَدُوُّ بأرْض الرّسالاتِ
يَخترقُ القُدْسَ شِبْراً فشِبْراَ
تعَذّبُني أمّتي لا تريدُ آلـ
ـحَياةَ وتطْمَعُ في صَدّ كِسْرَى
جُنِنْتُ. نعَمْ حُقّ لي أنْ أجَنّ
مَعَ الدّجْنِ ألْمَحُ في الأفْقِ بشْرَى

ويشبّه الرباوي أطفال فلسطين، الذين انتفضوا متسلحين بالحجارة للوقوف في وجه الطغيان الإسرائيلي، بالأشجار التي تحمل في أفنانها النار والنور، بحيث ترمز النار إلي سلاح الحجارة الذي يحمله أبناء فلسطين المحتلة، على حين يرمز النور إلي التفاؤل والأمل بغدٍ أفضل. والعلاقة القائمة بينهما هي علاقة الوسيلة بالغاية، فالنار وسيلة للوصول إلي غاية منشودة، وهي تخليص فلسطين من براثن الاحتلال الصهيوني الذي لا يلتزم لا بمقررات "الأمم المتحدة" ولا بمقتضيات الضمير الإنساني. يقول الرباوي في قصيدته "العصافير تنتفض"، التي نظمها في الواحد والعشرين من فبراير 1988م، عقيب اندلاع الانتفاضة الأولي المباركة:[103] (الرمل)

ها هِيَ الأشْجارُ تلتفُّ هنا، تحْمِلُ في أغْصانِها
الرُّعْبَ وتمْشي، تحْمِلُ الأحْجارَ في أوْراقِها الخُضْرِ
وتمْشي، تحْمِلُ النارَ وتمْشَي، النُّورَ، تمْشي. هيَ
ذي تدْنو مِنَ القلْعَةِ فجْراً. وعلى الأرْصادِ ها تلْقي
سَحاباً مَعَ حَبّاتِ النّدى تدْخُلُ جَهْراً فإذا الأشْجارُ

---

[102] - ديوان الانتـــفاضة، ص42.

[103] - الرباوي: الولـــد المـــرّ، المطبعة المركزية، ط.1، 1989، ص52.

أطفالٌ، إذا الأطفالُ مِرانٌ، إذا المِرانُ أشطانُ

دِلاءٍ في لِبانِ الأدهمِ المُعتصَبِ.

وقد أخذ هؤلاء الأطفال/ العصافير على عاتقهم مهمة الدفاع عن وطنهم، وإجلاء المستعمِر، والسير على مَهْيَع الجهاد حتى النصر أو الشهادة. وهكذا، فهُم متمسكون بتربة وطنهم، متشبّثون بفلسطينيتهم. ولم يرضوا بالانتزاح عن بلدهم الذي يبعث كل ما فيه على الغربة والمعاناة والعذاب المستمر:[104]

هُمْ جَميعاً بايَعُوا فاجْتمَعُوا في أرْضِهِمْ، لمْ

يَتْرُكوها لِلْغاثِ[105] الطَّيْرِ، لم يَنْسَحِبُوا، لمْ يَدْفِنُوا

أمْواتَهُم في بَلدٍ غيرِ فِلَسْطينَ. هو الفَتْحُ أتى يَنْشُرُ

أعْلامَ الهُدى. ها تبْرُزُ الأرْضُ عَروساً تتَهادى في

ثِيابِ قُشُبِ.

ويدعو الرباوي أطفال فلسطين إلى الصمود والجهاد لطرْد الصهاينة الطغاة من أرض الله المقدسة. فهم الأمل والقوة التي تزلزل كيان بني صهيون. وإن الحجارة التي يتسلحون بها لَهِيَ أشدُّ وقعاً من الخُطب والشعارات التنديدية التي يردّدها وُلاة المسلمين باستمرار:[106]

أيُّها الأطفالُ يا زَهرَ أراضينا السَّليبَةْ،

أنتمُ الطَّيْرُ الأبابيلُ التي أرْسَلَها الرَّحْمَنْ

ترْمي عسكَرَ الطّاغوتِ رَمْياً بالحِجارَةْ،

أنتمُ الطَّيْرُ التي في زَمَنِ المَحْلِ

ترُشُّ الرَّمْلَةَ العَطْشى بأنداءِ البشارَةْ،

أنتمُ الطَّيْرُ الأبابيلُ اقْذِفُوا

في رُكَبِ اللَّيْلِ الحِجارَةْ،

إنها أصْدَقُ أنْباءً مِنَ الشِّعْرِ وكُلِّ الكُتُبِ،

هِيَ إمّا قَصُرَتْ كان جِهاراً وَصْلُها خَطْواتِهِمْ،

ها أصْبَحَتْ تأخُذ حَقاً بالأنامِلْ،

قاتِلُوهُمْ واتْرُكوا جَدَّهُمُو في صَبَبِ.

وبخُصوص موقف العرب والمسلمين ممّا يحْدُث لشعب فلسطين المقهور على يد الصهاينة الذين يستخدمون مختلف الوسائل لتهويد القدس، وطرد الفلسطينيين الأهالي من وطنهم، وبثّ جوّ الاضطراب والاغتراب والرعب بين صفوفهم ... فإنه "شكلي" مَرن يقتصر على التنديد الذي لا يُجْدي مع الصهاينة شيئاً. يقول الرباوي:[107]

---

[104] - نفـــسه، ص53.

[105] - البـــغاث: (بتثليث الباء) صـــغار الطير. ومنه المـــثل: "إن البغاث بأرضنا يستنـــسر".

[106] - الرباوي: الولد المر، ص54.

[107] - نفـــسه، ص55.

قاتِلُوهمْ.. قاتِلوا صُفْرَ العَمَائِمِ،

قاتِلوهمْ.. نحنُ مَعَكُم مِنْ كَراسِينا نقاتِلْ،

نحنُ مِنْ شاشَتِنا ذُقنا قليلاً

مِن تجاويفِ العِذاباتِ التي تسكُنُكُمْ،

ذُقنا قليلاً منْ مَآسِيكُمْ،

قليلاً مِنْ شَجَاكُمْ،

فرَمَيْنا مِنْ كَراسينا الأعادِي بالقَنَابلْ.

ويعبر الرباوي أبلغ تعبير عن تقاعُس المسلمين عن نصرة إخوانهم في فلسطين قائلاً:[108]

أيُّها الأطفالُ يا سِرْبَ سَنابلْ،

أيُّها الأطفالُ يا زَهرَ أراضينا الحَبيبَةْ،

يَوْمُكمْ هذا ثِقافٌ، غَدُكُمْ أيضاً ثِقافٌ، يَوْمُنا

نحنُ قحافٌ، فأضعناكُم صِغاراً، ثمَّ حَمَلْتُمْ كِباراً ثِقَلَ

ما يَنزِفُ منْ أجسادِنا المُرتبكَةْ.

نحْنُ يا زَهرَ أراضينا تخَلَّفْنا ولمْ نسرِجْ جِيَاداً،

لمْ نسافرْ في تضاريسِ الجِراحاتِ التي تزْهِرُ في

أفْئِدَةِ الأشْجارِ جَهْراً. نحْنُ ضَيَّعْنا بِلاداً. نحْنُ

لمْ نسْرِجْ جِيَاداً. نحنُ لمْ نرْسِلْ دِمَاءً.

لقد نسي المسلم أخاه الفلسطينيّ الذي يتألم ويعاني الاغتراب في بلده الحبيب باستمرار في انتظار انبثاق ضوء الفجر من عتمة الليل القاسي والمتطاول. ولم يعد المسلم بمثابة ذلك العُضو من الجسم الذي "إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تدَاعَتَ لهُ سائِرُ الأعْضاءِ بالسَّهَرِ والحُمَّى"، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم ... وهكذا صار المسلم اليومَ يهتم بمشاكله ومشاغله الخاصة متناسياً ما يحدُث لإخوانه المسلمين في مواطنَ عدةٍ من أمتنا. يقول الرباوي:[109]

نحْنُ في كُلِّ

صَلاةٍ قدْ دَعَوْنا.. ورَجَوْنا الغَيْثَ، لكنا نسِيناكُم جَميعاً

في دُعانا، شَغَلَتْنا عنْ أراضيكُم أراضينا، وعَنْ كُلِّ

أهاليكُم أهالينا، وعَنكُم يا أحبّانا شَغَلْنا بكَراسِينا

التي نحتَلُّها في البَرْلَمَانْ.

---

[108] - نفـــــسه، ص56.

[109] - الرباوي: الولد المر، ص ص56-57.

وكان من الطبيعي أن يتحسَّر الرباوي على هذا الوضع القائم، وأن يشعر بالغربة والعذاب النفسي المؤلم. ومن ثم، فهو لا يملك إلا البكاء والتأسف وطلب الغفران لأمتنا التي ركنت إلي الراحة واللهو تاركةً المجالَ للآلة الصهيونية والغربية كي تصنع ما تشاء بالمسلمين:[110]

شَغلتنا عنكُمُو أنفُسُنا،

شَغلَتنا عَنكُمُو أولادُنا،

فاستَغفِروا اللهَ لنا،

اِستَغفِروا اللهَ لنا.

لقد اقتصرنا في هذه المقالة على حديث الرباوي عن آلام ومعاناة وغربة أبناء فلسطين فوق ثرى بلدهم الذي يعاني الحصار والقمع، وتعبث به ريحُ التغريب والتهديد صباح مساء. والذي يتصفح باقي أشعار الرجل يجد فيها تعبيرا صادقا وجادا عن مآسي وأحزان الأمة الإسلامية ككل، وفي بقاع مختلفة منها.

ويمكن أن نخرج من هذا الفصل ببعض الملاحظات، كالتالي:

- إن ثيمة الغربة والمعاناة تبرز بوضوح في شعر محمد علي الرباوي، ذلك بأن الشاعر قد اكتوى بلهيب هذه الغربة تحت سماء وطنه العزيز. ثم إن حال أمتنا في الوقت الراهن يقود إلي الإحساس الحتمي بالاغتراب والضياع.

- وارتباطاً بالثيمة المذكورة، يبرز معجم الحزن والأسى في شعر الرباوي نفسِه، لأن الرجل يعيش عصره، ويعاين آلام وآمال أمته التي أمست مَهيضة الجناح في الزمن الحاضر. وعليه، فقد كان من الطبيعي أن يشعُر الشاعر بالحزن. يقول الدكتور عبد العزيز المقالح في تسويغ بروز هذا المعجم في الشعر المعاصر: "لمّا كان الفرحُ في عالمنا العربي، وفي تاريخنا العربي، قليلاً، فإن حديث الشعراء عن أحزانهم وتسجيل مشاعر الإحباط والألم هو الطابع السائد والصدى الحقيقي للواقع الكئيب".[111]

- تحضر "الذاتية" بوضوح في شعر الرباوي، لأن هذا الشعر يصدر عن ذات وبَعد معاناة. وهذا ما يعطي له صفة "الصدق" التي تفتقر إليها أغلبية القصائد الشعرية المعاصرة. يقول الرباوي: "أومِنُ أن الشعر إذا خلا من عنصر الذات سقط. لهذا تجد عنصر الذات في كلّ شعري حتى تلك الأشعار التي يبدو فيها الطابع الموضوعي واضحاً، ذلك أني لا أكتب إلا بعد معاناة. والمعاناة هي البوتقة التي تنصهر فيها الذات".[112]

- لقد خدم الجانب الشكلي والجمالي في الأشعار المحلَّلة في هذا البحث موضوع الاغتراب والمعاناة. حيث وجدنا الشاعر يُكثر من استخدام المتدارك/ الخبب بوصفه نسقا نغميا مناسباً لاحتضان المشاعر الحزينة. كما أن اللغة الشعرية جاءت ملائمة لغرض الغربة . . . ومن الضروري أن نشير إلي أن النقاد والدارسين قد أسالوا حبْراً غزيراً في الحديث عن ثنائية (الشكل ≠ المضمون)، وعن طبيعة العلاقة الجامعة بين الجانبين، فظهرت كتابات نقدية من الوفرة بمكانٍ حول الشكل ومقوماته وبلاغته . . . وظهرت أخرى حول المضمون ورسالته وتأثيره. . . والحق أنه لا يمكن الفصل بين الشكل والمضمون، ذلك بأننا لا نستطيع تصوُّر شكل بمعزل عن المضمون، ولا مضمون بمعزل عن الشكل. إنهما متلازمان، ويمثلان وجهين لعملة واحدة. ولا سبيل إلي الفصل بينهما إلا لغرض الدراسة والمقاربة.

---

[110] - نفـــــسه، ص57.

[111] - عبد العزيز المقالح: الشعر بين الــرؤيا والتشكــيل، دار العودة، ط.1، 1981، ص26، بتصرف.

[112] - مجلة "المشــكاة"، ع.12، س.3، 1990، ص99.

الفصل الثالث: الاغتراب في شعر محمد بنعمارة.

مِنَ الثيمات (Thèmes) التي يطّرد حضورها في المتن الشعري الإسلامي المعاصر بصورة لافتة للنظر موضوعة الاغتراب مع ما تستتبعه من معاناة و شعور بعدم تواؤم الذات مع محيطها الخاص و العام و نحو ذلك. و هذا أمر يبدو طبيعياً إذا ربطنا نصوص هذا المتن بالفضاء الزماني و المكاني الذي تمخّضت و وُلدت فيه... و ستسعى هذه الصفحات المعدودات إلي تسليط الضياء على جوانب من تجربة الاغتراب و بواعثها لدى أحد الشعراء المغاربة الكبار الذين، كان لهم إسهام بارز في رسم صُوى مشهدنا الشعري مذ السبعينيات، من خلال استنطاق بعض نصوصه الشعرية، و يتعلق الأمر بالشاعر الراحل محمد بنعمارة الذي اكتوى بلظى الغربة داخل وطنه و أمته، فجسّدها في شعره بلغة شعرية تنبض بالصدق و الأصالة... و قد صرّح الشاعر قبيل وفاته بأيام قليلة، في حوار أجراه معه د. يحيى عمارة، بغربته داخل بلده، لاسيما بعد تدهوُر حالته الصحية دون أن تلتفت الجهات الثقافية الرسمية إليه! ومحمد بنعمارة من مواليد 1945م بمدينة وجدة، شرق المغرب، بدأ نشر أعماله الشعرية في أواسط الستينيات، وشارك في مهرجان الأمة الشعري الأول ببغداد عام 1984. وكان عضواً في رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وفي اتحاد كتاب المغرب، وكان، أيضاً، مُنتجاً إذاعياً اشتهر ببرنامجه الجميل "حدائق الشعر" الذي كانت تبثه إذاعة وجدة الجهوية. ومن دواوينه الشعرية نذكر: ممالك الزمن الأخضر، السنبلة، نشيد الغرباء، في الرياح وفي السحابة (2001)... وله جملة من الأبحاث الرصينة. وقد مرّ في حياته الإبداعية والأكاديمية والإعلامية، بثلاثة أطوار لخّصها في قوله في آخر حوار أجري معه: "أولاً، المرحلة الأولي هي مرحلة جماعة ظهر المهراز بفاس حيث شاء الله أن يلتقي عدد كبير من الشعراء المغاربة الذين كوّنوا خميرة الشعر المغربي الحديث. أما المرحلة الثانية وهي مرحلة الدعوة إلي الأدب الإسلامي. والمرحلة الثالثة كانت مرحلة الدخول إلي عالم التصوف واستنطاق مكوّنات التصوف داخل القصيدة. وعلى المستوى الأكاديمي رصيدي من ذلك كتابان معروفان هما "الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر"، نِلتُ عنه جائزة المغرب للكتاب، وكتاب "الصوفية في الشعر المغربي المعاصر: مفاهيم وتجليات"، نلتُ عنه جائزة عبد الله گـنون للبحث العلمي... وعلى المستوى الإعلامي اشتغلت في الإذاعة منتجا منذ 1965، أنتجت برامج كثيرة، منها: "الجيل الصاعد"، "بيوت الله"، "شارع الحياة"، ثم برنامج "حدائق الشعر" الذي دام ثلاثين سنة في عمره، ثم أنتجت برامج للإذاعة المركزية بالرباط، منها على سبيل المثال "إضمامة شعر" و"أذواق وأشواق". واشتغلت بإذاعة محمد السادس للقرآن الكريم مشرفاً على برنامج "يسألونك" لمدة سنتين والحمد لله رب العالمين"[1]. و قد توفي رحمه الله تعالي يوم السبت 12 ماي 2007، إثر مرض لم ينفع معه علاج.

لقد عاش بنعمارة الغربة والوحدة والوحشة من جراء ثنائية (الروح ≠ الجسد) التي دفعت به إلي مضايق الاغتراب والتيه، فصار كريح تمرق في فلاة شاسعة الأطراف. يقول:[2] (الجَبب)

جسدي خابيةٌ، والروحُ القَطْرةُ تنشر تسبيحي

إنهما اثنان..

يمدّان إليَّ سواقِي الغُرْبةِ، ويحدّثني عرشُها:

ها أنتَ كريحٍ تمْرق في الصحراءْ

وتدفعُك لغاتُ الكشف إلي واديكَ الملتفّ بوحشتِهْ

وتشقُّ جهاتٍ لم يعرفها العَرّافونْ

---

[1] - العلم الثـقافي ، س.36، الخمـيس 2007/05/10، ص4.

[2] - محمد بنعمارة: مملكة الروح، المطبعة المركزية، ط.1، 1987، ص24.

وتهرُبُ من بين الطين وترتدُّ إليَّ

فأصغي.

يطغى على المقطع أعلاه المعجم الصوفي (جسدي خابية - الروح القطرة تنشر تسبيحي - لغات الكشف - الملتف بوحشته — العرافون - الطين...)، الذي وظفه الشاعر لتصوير غربته الميتافيزيقية/ الروحية في واقع المادة/ الطين. وبين الجسد والروح، أو المادة واللامادة، تنبت ذات الشاعر التي زاوجت بين الأمرين، فأخذت بنصيبٍ من المادة، وبنصيب من اللامادة. يقول:[3]

بينهما تنبُت ذاتي كالنخلةِ

تستمطرُ غيْم الصَّبَواتِ

وترقى في ليلةِ وحدتنا:

- أنتَ الجسدُ الموصُولُ

وأنتَ الماءُ

أنتَ الراءُ، وأنتَ الواوُ، وأنتَ الحاءُ

أنتَ النخلةُ في جسد الصحراءِ.

لقد شبّه الشاعر ذاته في السطر الأخير بالنخلة الثابتة في صدر الصحراء. وقد أسهم هذا التشبيه الحسي في تبيان مدى غربة الشاعر وشعوره بالوحدة في عالم المادة/ الجسد، وكذا إصراره على التحدي والصمود. وكان لاستعمال وزن الخَبَب هنا أثر جلي في إبراز حال الغربة والعزلة. وقد ذهب المرحوم عبد الله الطيب السوداني المجذوب، في مرشده، إلى أن هذا النسق النغمي استفاد منه الصوفية في بعض منظوماتهم التي تنشد لتخلق نوعاً من الهستيريا.

وبناءً على ما ورد في النص المتقدم الذي يسيطر عليه النفَس الصوفي، يمكن أن نوضح موقع الشاعر المغترب الذي يتوسَّط عالمه الخاص عالمين، عالمَ السفليات/ المادة، وعالمَ العلويات/ اللامادة، بالبيان التالي:

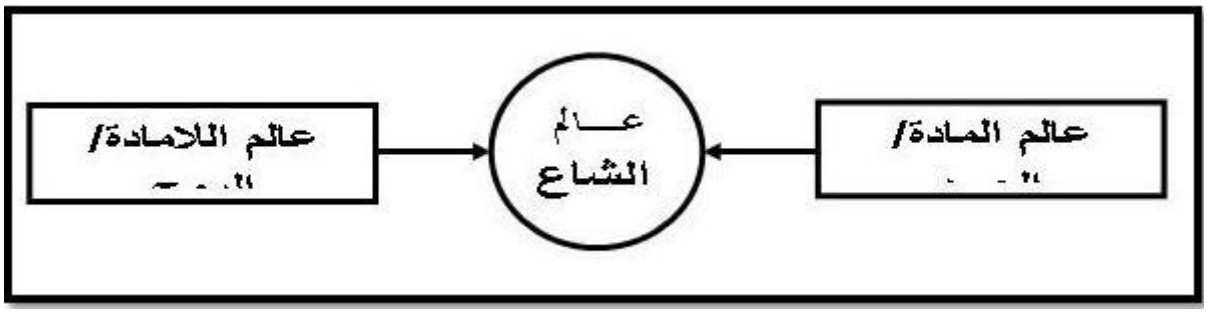

عاش بنعمارة في وطنه المنفي/ الغائب والغارق في ليل المحن والإحَن حياة ضعف وغربة، بحيث إنه لم يكن يمتلك فيه أي شيء سوى الأحلام والأماني الكثيرة الممتدة. وهذا الجو الأليم دفعه إلى ارتياد عوالم الاغتراب والانطواء على الذات كحَلَزونٍ منعزلة داخل قوقعتها. يقول:[4] (الخَبب)

أنتَ لا تملك موطنك المَنفيَّ

وتسكنُ جسمَك كالقوقعة التسَّبَحُ في صمت عوالمْ

---

[3] - المصدر نفسه، ص25.

[4] - بنعمارة: نشيد الغرباء، مطبعة النور، تطوان، ط.1، 1981، ص ص31-32.

قعر البحْرْ

أنتَ لا تملك سُحبًا منجوّلةً

لا حَوْلَ لكَ

ولا تملك من أمطار شتاءِ العام رَذَاذاً

وخراجُك لا تملكهُ

والحرْفُ اليانعُ يَذْوِي اللحظةَ بين يديْكَ

وهزَلتَ فيه معاني عشقِكْ

يا أنتَ، الحُلمُ الممتدُّ مع النهرِ

مِنَ النبْعِ إلي حيث تصبُّ أماني أطفالِ

الوطن الغارق في ليلِهِ.

وتحدث بنعمارة عن ضياعه وغربته المضنية غير ما مرة، وحاول مرارا الفرار من قبضتها القوية. ولكن شبح الرحلة، وألم المدينة المعقدة، وفعال قومه ظلت تطارده في حلّه وترْحاله. يقول بنعمارة موجها الكلام إلي مخاطَبة طالما تعلق بضوء محبتها، ملتمساً منها التخفيف من معاناته وغربته:[5] (الخبب)

يا أيّها الأنثى الآتيةُ مع السيْلِ

المنثورةُ في مملكة الأعوام، كأيامي

أبحَرْتُ كثيراً

واخترتُ العاصفةَ الخضراءَ

لأكْشِفَ ضوء محبّتكِ مع الموج

هربْتُ مع الطيرِ

وكانتْ أجْنحةُ الرّحلات تطاردُني

والمدنُ الفحْمية تطاردني

ويطاردني قومٌ كالدّفْلَى

- يا ليْت ظِلالك في وقتي، ومكاني.

ولتجاوز آلام الغربة ومظاهر المعاناة والمقاساة، دعا بنعمارة إلي ركوب قطار العشق:[6] (الخبب)

أيْقِظْ سُلطانَ العِشقِ

ولا تنْزلْ في ساحات الوقت غريباً.

---

[5] - أي "التي تسبح". فـ"ألْـ" هنا ليست للتعريف، وإنما هي موصولة دخلت على فعل مضارع. ومن ذلك قول الفرزدق:

ما أنت بالحَكَـم التـُّرْضى حكومتُه ولا الأصـيلِ ولا ذي الرأي والجــدلِ

أيْ "الذي ترضــى".

[6] - بنعمارة: مملكة الروح، ص 44.

[7] - نفــسه، ص21.

وفي غمرة الغربة، لا يظل الشاعر مكتوفَ اليدين، ساكنا. بل يتصرف ويقوم بردودِ أفعالٍ (Reactions) للخروج من واقع الاغتراب إلي واقع الانشراح، ومن وضع كليل إلي إعلان ميلاد وضع جديد. ولعل الثورة من أهم الوسائل القمينة بنقل الشاعر من حال الاغتراب والمأساة إلي حال السعادة والغبطة. يقول بنعمارة:[8] (المتقارب)

وفي غُرْبتي أتسلّق حُوريةً كالسَّحابِ

لها جسدٌ فيه وشْمٌ قديمٌ

ورغْبتُها من نشيد الثوّارِ

تسلّقْتُ فيها جراحَ البلادْ

وأسمعتُ في صوتها أغنياتي

ظلاً لكِ أيتها اللحظاتْ

تجيء مع الموج مُثقَلةً بالنشيدِ

تحت غيْم التنقل بين المحطّاتِ..

تغلِن طلْعةُ كل المسافاتِ ميلادنا

ويمكن أن نقرأ ذلك جدولياً كما يلي:

الواقع المرئي	المرحلة الانتقالية	الواقع المنشود
– الواقع الكائن		– الواقع الممكن.
– واقع الضياع	ركوب قطار الثورة	– واقع الكرامة.
– واقع الاغتراب		– واقع الانشراح.

تتبدّى في كثير من أشعار محمد بنعمارة نغمة الحزن والمأساة، سواء الذاتية أو الجماعية، لأن واقعه المعيش يبعث على ذلك. والشاعر واحد من أبناء مجتمعه وأمته، يعاني ما يعانونه، ويتألم كما يتألمون.

يقول بنعمارة في التعبير عن الأحزان والمأساة التي تكتسحه وأبناءَ مجتمعه، هذه المأساة التي تدفع إلي الاغتراب والتنقل إلي حيث يوجد الهدوء والاطمئنان للعيش حياة الكرامة والعزة والحرية التامة:[9] (المتقارب)

حينَ كان المدى كالفضاءِ بلا منتهى

وكانت عيونُ النساء ترانا كعُصفورين

فوق غُصون الرّياح ننامُ

ونشرب أحزاننا

ثم نهجُرُ هذا المكانَ

إلي حيث توجد أسرابُ طيرٍ غريبة

[8] - بنعمارة: نشيد الغـرباء، ص ص53- 54.

[9] - نفــسه، ص ص15- 16.

هناك نقيمُ..

ونقرأ بالجَهْر قرآننا

إن المأساة والأحزان التي يتحدث عنها بنعمارة ليست ذاتية، وليست وليدة اليوم. بل إنها تتجاوز الذات الشاعرة لتمس أبناء وطنه قاطبة ذكورا وإناثاً، ثم إنها قديمة سبَّبتها ظروف معينة . . . وأمام هذا الواقع المرير يبحث الشاعرَ يبحث عن الخلاص الذي من شأنه أن يُريحه من آلام الأحزان وأتعاب الاغتراب القاسي. يقول في قصيدةٍ له بعنوان "أسفار داخل إيقاع الموج":[10] (الرمل)

تحْت الظّلال سنلتقي

وطنٌ، وأنثى، ورَجُلْ

حزنٌ ثلاثيٌّ بدأناه قديماً

حين أوْغل في مِداد البَحْر سيْف

يَحْرس الأشباح والسفنَ المهاجرةَ التي

قد هرَّبت من جلد هذا البَرّ آلامَ العَذارى

أنتَ زهرٌ شائكُ الأشكال يتبعني

فأبحثُ عن رفيقٍ

يمْتطي وجهَ الفضاءْ

ويرتمي في حِضْن عاشقة المَسافة

ولا ريْب في أن وراء شعور بنعمارة بالاغتراب والمعاناة تقبع جملة من الأسباب والعوامل. والنص الموالي يُومِئ إلى بعْضها:[11] (الخبب)

.. مَن باع مآذن مدن الشام، ومصْرَ

ومن أدْخل أقْدامَ الروسِ إلى مسْجد كابولَ

ومن هرَّب شاهَ الظلْمِ

وكيف تتم ألأعيبُ "الكَامَبْ"

على مائدة الحُزن العربي.

تختزن الأراضي العربية والإسلامية خيرات عظيمة وثروات متنوعة (النّفط -المعادن. . .) إذا أحْسن استغلالُها، وتم توزيعها بإنصاف وعدل، فإن المسلمين قاطبةً سيعيشون عيشة الغنى والكرامة والهناء. ولكن الواقع الملموس شيء آخر ؛ حيث نرى أن كثيراً من أبناء الأمة الإسلامية يعانون من الأمراض الفتاكة والمجاعة والفقر المُدْقع، مع وجود قلة من المسلمين تستحوذ على ثروات عديدة، وتكنز أرصدة هامة من الأموال في البنوك المحلية والخارجية! يقول بنعمارة في تصوير واقع أمتنا الذي يتداخل فيه الغنى الفاحش والفقر العارم:[12] (الخبب والمتقارب)

تتداخل الضّحْكاتُ، والأنّاتُ

والتصفيقُ، والمتفرّجُ العربيُّ

---

[10] - بنعمارة: مملكة الروح، ص ص50-51.

[11] - بنعمارة: نشيد الغرباء، ص57.

[12] - نفسه، ص ص50-51.

والبترولُ.. والموتى

وشعوبٌ شَمْعٍ في المتاحفْ

والزعامةُ في اليَمين وفي اليسَار..

- رصيدُ هذا الحزب يكْبُرُ في البنوكْ

- ونحن .. نحن نجوع..

يصبح توأماً فينا الأنيما[13] والجُذام[14]

وقد كان من المنطقي أن يدفع هذا الواقع الموبوء، الذي ينطوي على مفارقة واضحة ، الشاعر المغربي المعاصرَ بنعمارة[15] إلي الشعور بالاغتراب والحزن، لأنه واحد من أبناء هذه الأمة، يتألم بتألمها، ويسعد بسعادتها.

ويزداد اغتراب بنعمارة وتيهُه بتزايد معاناة الأمة الإسلامية، وكثرة جراحاتها في زمن أفول شمْسها. يقول في المقطع الثاني من قصيدته "أغنيات في حدائق شيراز":[16] (المتقارب)

شِيرازُ أمَاهْ ما هي قِبْلتي

الشمسُ آفِلةٌ

والطيرُ راحِلةٌ نحو الجَنوبِ

تعانِقُ الغيْمَ المبَعْثرَ في الفضاءْ

ويقول في المقطع الثالث من القصيدة عينِها ملمِّحاً إلي سيادة جو الحزن والغربة والمتاهات في كيان العالم الإسلامي عامةً:[17]

طائرُ النَّوْرَسِ قد عاد من النيل حزينًا

يَرْكَب الغيْمَ ويتلو الأغْنيات

المتاهاتُ ..المتاهاتُ ..المتاهاتْ

عُربثنا في جَحيمِ الأمنيات

لقد أمست هذه الغربة هاجسا حقيقيا يقضّ مضجع الشاعر وأمته. وهنا يدعو بنعمارة إلي الاستيقاظ والوقوف وقفة الرجال لمجاهدتها، حاثًّا على ترْك الكلام اللأمُجْدي والانتقال إلي المجاهرة بالحق ورفض أجواء الغربة والتغريب. يقول: (الخبب)

فيا مَن نام هنا مختفياً في الكلماتِ

استيْقِظْ،

إنّ الغربةَ هاجِسُنا

وبلادُ الشام تتوّج والِيها الأمَويْ

لقد نظم بنعمارة – كغيره من الشعراء الإسلاميين المعاصرين ، من أمثال حسن الأمراني و محمد علي الرباوي - قصائد رائعة ومؤثرة في تصوير محنة القدس وآلام المسلمين وأحزانهم في الوقت الحاضر بخاصة. ونذكر هنا، على سبيل المثال لا الحصر، ميميته

---

[13] - كلمة معرّبة من اللفظة الفرنسية (L'anémie)؛ ومعناها: فقر الدم.

[14] - داء كالبرص يسبّب تساقُط اللحم والأعضاء.

[15] - بنعمارة: نشيد الغرباء، ص22.

[16] - نفسه، ص23.

[17] - بنعمارة: مملكة الروح، ص49.

"الغضب المقدّس"، المنشورة ضمن "ديوان الانتفاضة"، الذي أصدرته مجلة "المشكاة" عام 2001 (ع 34/35)، وقد أشار في ثناياها إلى معاناته وأحزانه من جراء ما تعانيه القدس ، اليومَ ، بسبب الاعتداءات الوحشية السافرة التي يقوم بها اليهود دون مراعاةٍ لحُرمة ولا أخلاق.

تعدّ القدس القلب النابض للأمة الإسلامية، ورمز قوتها، ومنشأ عِزها، ومسرى نبيها الكريم. لذا تحضر بكثافة في الشعر الإسلامي المعاصر، وتحتل مكانة مرموقة في نفسية الإنسان المسلم. يقول بنعمارة:[18] (الكامل تامُّ الأجزاء)

اَلقدسُ نورٌ في القلوب مقدَّسٌ ومحبّةٌ، وصبابةٌ وغرامُ

وبالنظر إلى تلك المكانة المتميزة المشار إليها في الفِقرة الآنفة، فإن أي حزن أو معاناة تلم بالقدس لابد أن تنشر ظلالها عبر كيان الأمة الإسلامية كله، من منطلق ذلك الرباط المقدس الذي يربط المسلمين بالقدس. وهكذا يتألم المسلمون ويغضبون كلما جُرحت قدسهم وألمّ بها الحزن. يقول بنعمارة:[19]

القدسُ أرضُ اللهِ من زيتونها يتوقد التاريخ والأيّامُ

تبكي الكنانة حزنها وجراحها والمغربُ الأقصى وذاك الشامُ

غضبُ العُروبة عارمٌ ومجلجلٌ طُوِيَ السِّجلُّ وجفّتِ الأقلامُ

وتوحّد القدسُ البلادَ جميعَها كلُّ البلادِ مُصابُها الآلامُ

وأمام هذه الحال، لا يرضى الشاعر إلا بخيار الحرب والجهاد. لأنه لا سلام مع الصهاينة الأعداء الذين ألفوا اختلا ق الدسائس والأساطير لضمان استقرارهم في فلسطين الطاهرة، وإضفاء الشرعية على تصرفاتهم الهمجية والتوسعية. يقول بنعمارة:[20]

هذا خيارُ الحرب آتٍ فاسمعوا كذِب الذي قال: الحياةُ سلامُ

سقطتْ أساطيرُ اليهود وزُلزلتْ وانهارتِ الأوثانُ والأصنامُ

المجْرمون تعوّدوا أحقادَهمْ غرّتهم وبخ.داعها الأحلامُ

ويقول في فضل الاستشهاد في سبيل الدين والقدس الشريف:[21]

هذا شهيدٌ في صحيفة مجْدِنا أبلى البلاءَ طريقُه القسّامُ

صاغ الجهادَ مُلبّياً ومرابطاً رسَم الطريقَ كأنّه رسّامُ

ودعا إلى موتٍ نبيل رائع فتسامقتْ بصمودِه الأعلامُ

هذا الذي كانت له أيامُهُ وبفضْله يَتخايَل الإسْلامُ

شَهْمٌ، قويٌ، صامِدٌ ومبَجّلٌ سقطتْ أمام صُموده الأوْهامُ

من خلال قراءة الشواهد الشعرية الواردة في هذا الفصل، يمكن أن نسجل الملاحظات الآتية:

- لقد خاض الشاعر المغربي الإسلامي المعاصر محمد بنعمارة تجربة الغربة والمعاناة ممارسةً وشعراً ؛ بحيث إنه نظم قصائدَ كثيرة في هذا الشأن، وعاش الاغتراب في واقعه وأمته. ومما تتسم به هذه التجربة أنها صادقة، وليست زائفة كما نلفي لدى كثير من الشعراء المحسوبين على التيار الشعري الحَداثي.

---

[18] - ديوان الانتفاضة، م.س، ص14.

[19] - نفـــسه.

[20] - نفـــسه، ص13.

[21] - نفـــسه، ص ص13- 14.

- نلمس في أشعار الأستاذ بنعمارة الأحزان والمأساة النفسية والاجتماعية. يقول الدكتور محمد إقبال عروي في هذا الصدد:

-تتداخل المأساة عند الشاعر المغربي محمد بنعمارة بين النفسي والاجتماعي، ويرتدي شخصية الأمة المثخنة بالجراح، فيتذوق مرارة الانهيار الذي سيتحول حتما إلي أمل في النصر المنشود-[22]

- إن جل شعر بنعمارة يتسم بطابع الغموض، هذا الطابع الذي صار ميزة فنية تطغى على الشعر العربي المعاصر عامة. ويحتاج هذا الشعر إلي عملية تأمل وتأويل لفهمه واستكْناه مقصوده. ويحضر في شعر الرجل، في أحايينَ كثيرة، النفَسُ الصوفي. ونشير ، هاهنا، إلي أن بنعمارة من الباحثين المهتمين بالجانب الصوفي وأثره في الأدب، بحيث أعد أطروحة جامعية بعنوان -الأثر الصوفي في القصيدة العربية المعاصرة- لنيل دبلوم الدراسات العليا، وذلك بإشراف الدكتور محمد السرغيني ... كما أكْثرَ بنعمارة من نسج أشعاره على نول وزن الخبب، الذي يناسب، إلي حدٍّ بعيد، المشاعر الأسيانة والموضوعات الغنائية... وبجملة واحدة نقول إن الشكل عند بنعمارة خادم للفكرة/ الموضوع.

[22] - محمد إقبال عروي: جمالية الأدب الإسلامي ، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، ط.1، 1986، ص ص59-60.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المـصادر.

أ/- **باللغة العربـية**

1- القرآن الكريم.

2- أبو القاسم الشابي: الأعـمال الكاملة، الدار التونسية للنشر، ط□1984

3- أحمد الحملاوي: شذا العَرْف في فن الصَّرْف، ط.16□1965

4- أحمد شوقي: الشوقيات، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.

5- الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.4، 1398هـ.

6- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت.

7- ابن سيدَه: المحكم، تح: إبراهيم الأبياري، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ط.1□1971

8- البخاري: صحيحه، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

9- الزبيدي: تاج العَرُوس، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، ط.1، 1306هـ.

10- حسن الأمراني: أشجان النيل الأزرق، مطبعة الأحمدية للنشر، الدار البيضاء، ط.1□1998

11- حسن الأمراني: جسر على نهر درينا، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط□1992

12- حسن الأمراني: الزمان الجديد، دار الأمان، الرباط، ط.1□1988

13- حسن الأمراني: سآتيك بالسيف والأقحوان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1996.

14- حسن الأمراني: القصائد السبع، المطبعة المركزية، وجدة/ المغرب، ط.1□1984

15- حسن الأمراني: ثلاثية الغيب والشهادة، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1□1989

16- طاهر العتباني: الطريق إلي روما، من منشورات مجلة "المشكاة"، وجدة، ع.30، مج.8□1999

17- مجدي وهبة: معجم مصطلحات الأدب: مكتبة لبنان، بيروت، ط□1974

18- مجموعة من الشعراء: ديوان الانتفاضة، من منشورات "المشكاة"، ع.34/35□2001

19- محمد بنعمارة: مملكة الروح، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1□1987

20- محمد بنعمارة: نشيد الغرباء، مطبعة النور، تطوان، ط.1، 1981.

21- محمد محمود الزبيري: ديوانه، دار العودة، بيروت، ط.1□1978

22- محمد علي الرباوي: أول الغيث، من منشورات "المشكاة"، ط.1□1995

23- محمد علي الرباوي: الأحجار الفوّارة، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1□1991

24- محمد علي الرباوي: أطباق جهنَّم، المطبعة المركزية، وجدة، ط1□1988

25- محمد علي الرباوي: الأعشاب البرية، من منشورات مجلة "المشكاة"، ط.1، 1985.

26- محمد علي الرباوي: الولد المرّ، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1□1989

27- محمد علي الرباوي: الرمانة الحجرية، المطبعة المركزية، وجدة، ط.1□1988

28- منير البعلبكي: المورد (قاموس إنجليزي - عربي)، دار العلم للملايين، ط.31□1997

29- نجيب الكيلاني: ديوان مهاجر، مؤسسة الرسالة، ط.1□1986

30- فريد الأنصاري: ديوان القصائد، مطبوعات الأفق، الدار البيضاء، ط.1، 1992.

ب/- **باللغة الأجنبـية**

31- Le PETIT LAROUSSE , Paris, Ed. 1996□

32- OXFORD UNIVERSITY: OXFORD Advanced learners Dictionay, O.U. Press, Fifth edition, 1995.□

ثانياً: المـراجع.

أ/- **الكتـب:**

33- بلقاسم الجطاري: "أبواب ونوافذ: مقاربات فنية في الشعر الإسلامي المعاصر"، دار النشر الجسور، وجدة، ط.1، 2001

34- محمد إقبال عروي: جمالية الأدب الإسلامي، المكتبة السلفية، الدار البيضاء، ط.1، 1986

35- ميّ يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة/ مصر، ط1، 1991

36- نجيب الكيلاني: الإسلامية والمذاهب الأدبية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1987

37- عبد العزيز المقالح: الشعر بين الرؤيا والتشكيل، دار العودة، بيروت، ط.1، 1981

38- عبد السلام محمد الشاذلي: حول قضايا التغريب والتجريب في الأدب العربي المعاصر، دار الحداثة، بيروت، ط.1، 1985

39- عبد الرزاق الخشروم: الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 1982

40- عزّ الدين إسماعيل: "الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية"، دار العودة، ط.3، 1981

41- عمر الملأحي: تجليات الوعي في القصيدة الإسلامية المعاصرة، رسالة جامعية لنيل د.د.ع. مرقونة مسجلة بخزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة (المغرب) تحت رقم 50، نوقشت يوم 19 دجنبر 1999

42- فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط.1، 1993

43- صلاح نيازي: الاغتراب والبطل القومي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط.1، 1991.

ب/- **الصحُـف:**

44- الأدب الإسلامي، ع.19، مج.5، 1419هـ - ع.22، مج.6، 1420ه.

46- الآداب، بيروت، ع.7/8، س.49، 2001.

47- آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية المتحدة، ع.33، س.9، أبريل 2001

48- المورد، بغداد، ع.1، مج.16، 1987

49- المشكاة، وجدة، ع.8، س.2، 1988 - ع.12، س.3، 1990

51- عالم الفكر، الكويت، ع.1، مج.10، 1979 - ع.2، مج.15، 1984 - ع.3، مج.24، 1996 - ع.1، مج.25، 1996 - ع.3، مج.19، 1988.

العربي، الكويت، ع.194، يناير 1975

56-57- العلم الثقافي (الملحق الثقافي لجريدة "العلم"، لسان حزب الاستقلال بالمغرب)، س. 32، السبت 15/12/2001 - س. 32، السبت 12/01/2002 - س.36، الخميس 10/05/2007.